ALI SHARIATI

الآثار الكاملة (٢٣)

علي شريعتي





الإنسان والتاريخ

دار الأمير

الإنسان والتاريخ



سلسلة الآثار الكاملة - ١٨-

الإنسان والتاريخ

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

خليل علي

حقّقه وحرّره للنشر

محمد حسين بزي

دار الأمير

إسم الكتـاب : الإنسان والتاريخ

إسم المؤلـف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : خليل علي

تنضيد وإخـراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

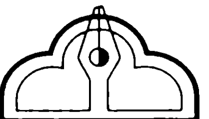
الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-24-1

الطبعة الأولـى : ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

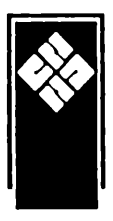
التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب : 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http://www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا . . ، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة عن حياة الدكتور علي شريعتي

ولد علي شريعتي في شهر كانون الأول من العام ١٩٣٣م، في قرية «مزينان»، وهي من قرى سبزوار، احدى مدن محافظة خراسان، التي تقع على حافة الصحراء الكبرى المعروفة باسم «دشت گوير».

والده محمد تقي شريعتي، أحد المفسرين المعروقين للقرآن الكريم، ومن كبار المفكرين والمجاهدين الإسلاميين، والمؤسس «لمركز نشر الحقائق الإسلامية»، الَّذي اضطلع بمسؤولية توعية الجماهير بالدور الحقيقي للدين في المجتمع.

بدأ علي شريعتي نشاطه السياسي مبكراً، حيث انضم إلى جناح الشباب في الجبهة الوطنية وهو لم يزل بعد طالباً في المدرسة الثانوية.

انضم شريعتي عام (١٩٥٤) إلى حركة المقاومة الوطنية ـ

بعد سقوط مصدق ـ التي أسسها كل من آية الله الزنجاني وآية الله الطالقاني ومهدي بازركان.

دخل شريعتي عام (١٩٥٤) كلية الآداب بجامعة مشهد.

أنشأ في الجامعة حلقات دراسية لمناقشة قضايا الإسلام، مستعيناً بجهود والده في هذا المجال.

سجن لمدة ستة أشهر، ولم يكن بعد قد تخرج من الجامعة، بعدما ضُرِبت حركة المقاومة الوطنية بعنف من قبل السلطة وتم تشتيتها، عام (١٩٥٨).

بعد تخرجه من الجامعة بدرجة امتياز في الأدب، أرسل في بعثة دراسية إلى فرنسا عام (١٩٥٩). وهناك واصل نشاطه السياسي إلى جانب دراسته، فأسس حركة تحرير إيران ـ فرع أوروبا، التي أنشأها آية الله الطالقاني ومهدي بازركان عام (١٩٦١).

في فرنسا، درس شريعتي الأديان وعلم الإجتماع والآدب، واختار علم الإجتماع الديني ميداناً لتخصصه، وكأنه كان يستشرف المستقبل عندما رأى أن الشعوب الإسلامية المقهورة لن تتحرك إلاّ بالدين، ولن تنجو إلاّ بالإسلام، فنال الدكتوراه في علم الإجتماع الديني، كما نال

دكتوراه ثانية في تاريخ الأديان، وكلاهما من جامعة السربون في باريس.

ظل علي شريعتي مناضلاً من أجل تنظيم الحركة الإسلامية في الخارج ولعب دوراً في تكوين النوىٰ الأولى للجمعيات الإسلامية للطلبة الإيرانيين في الخارج.

كذلك، كان من أبرز النشطاء في دعم الثورة الجزائرية، وتنظيم التظاهرات ونشاطات التضامن معها. وقد تعرف هناك على مناضلي العالم الثالث من أمثال ايماسيزار، وفرانز فانون، الذي ترجم للفارسية قسماً من كتابه «معذبو الأرض».

عاد شريعتي إلى إيران عام ١٩٦٣)، وقد أُلقي القبض عليه على الحدود. ثم أطلق سراحه بعد فترة وعين معلماً في المدارس الابتدائية في احدىٰ القوى النائية في محاولة من النظام لإحباطه.

وأصَّل شريعتي نشاطه الثقافي في منفاه، وأخذ يلقي الدروس والمحاضرات العامة ذات الهدف التنويري الديني.

كان صوت شريعتي مخلصاً عالماً بعيد الغور واضحاً في نفس الوقت، بحيث كان عدد المشاركين في ندواته ومحاضراته لا يقل عن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مستمع وكان يصل أحياناً إلى عشرة آلاف.

تستسلم السلطة لنفوذ شريعتي، فتنقله مدرساً في جامعة مشهد. وهناك يواصل شريعتي نشاطه الفكري والثقافي، ويتألق، طيلة الأربع سنوات والنصف التي قضاها في الجامعة، استاذاً مؤمناً أصيل الفكر والثقافة.

لم تطق السلطة ذرعاً بنشاط شريعتي، فتقرر إبعاده عن الجامعة وإحالته على التقاعد.

وفي العام (١٩٦٩)، تأسست في طهران حسينية الإرشاد، لتصبح بعد فترة، مركزاً لنشاطات علي شريعتي، حيث قام بإلقاء محاضرات منتظمة حول الإسلام وتاريخ الشيعة، مبلوراً من خلالها منظومة أفكاره حول الإسلام، والتي أراد منها تصحيح مفاهيم سائدة خاطئة عن الإسلام، كما أراد منها شحذ الإسلام سلاحاً للتعبئة الفكرية والسياسية في أوساط الشباب.

التفَّ حول حسينية الإرشاد ونشاطاتها جيل كامل من الشباب وكانت محاضرات شريعتي تطبع كراريس وتسجل أشرطة لتوزع بالآلاف في كافة أنحاء إيران. لقد حوَّل المجتمع كله إلى جامعة يلقي فيها دروسه ومحاضراته.

لا تجد السلطة بداً من اغلاق حسينية الإرشاد عام

(١٩٧٣)، واعتقال علي شريعتي ووالده، ليبقىٰ في السجن ثمانية عشر شهراً متعرضاً لأعتى صنوف التعذيب.

أُطلق سراحه عام (١٩٧٥)، بعد أن تدخل من أجله المسؤولون الجزائريون. ولكنه وضع تحت المراقبة ومنع من أية نشاطات علنية.

غادر طهران متوجهاً إلى لندن في آذار عام (١٩٧٧)، ليبدأ مرحلة جديدة من النشاط خارج البلاد، بعد أن سدت في وجهه السبل في إيران.

أقدم النظام الشاهنشاهي على اغتياله بعد شهر من وجوده في لندن بطريقة غامضة. وقد نقل جثمانه إلى سوريا بمبادرة من الإمام موسى الصدر، ليدفن إلى جوار مرقد السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

خلّف الدكتور علي شريعتي ما يزيد على المائة عمل، ما بين فلسفي وفكري وأدبي، تتخذ كلها من جذوة الإسلام القبس الذي يضيء الطريق أمام جماهير الشباب في صفوف الحركة الإسلامية في إيران والعالم، ويكون في موته أكثر حياة وأكثر حضوراً.

الناشر

البدء من الخاتمة

أيها الأساتذة الكرام، أيتها السيدات والسادة، أحبائي الطلبة، قد يكون الفرع الذي تواصلون فيه تحصيلاتكم الدراسية يبتعد عن القضايا المتعلقة بالعلوم الإنسانية، علم الإجتماع، والتاريخ، الفلسفة وعلم دراسة الإنسان، فلو كان الأمر كذلك يمكن عنده أن أقول بأنكم علىٰ دراية بما تذهب إليه هذه العلوم من قريب أو بعيد، بحيث تهيأت لكم الأرضية اللازمة للتعرّف عليها. أنا أوافقكم الرأي بأنه لا يتسنىٰ للمرء أن يتحدث عن الإنسان والتاريخ والعلاقة بينهما في مؤتمر واحد أو حتىٰ في عدة مؤتمرات ويحيط بالموضوع إحاطة تامة، وذلك لأن أوسع الأمور وأعقد الجوانب في العلوم هو البحث في قضايا الإنسان. وأن أوسع وأعقد جوانب البحث في قضايا الإنسان هو البحث في الذات الإنسانية وتاريخها، وعليه فمن الواجب علينا جميعاً أن نكون قد توصلنا إلى تعريف واضح للإنسان وتاريخه حتى يمكننا الغور في موضوع

الإنسان وتاريخه، ومثل هذا الأمر يستدعي أرضية صلبة وشاملة. ولو أنشأت مجموعة معينة صفاً ـ على سبيل المثال ـ تقرر فيه أن أُدرّس هذا الموضوع، لأحتجت إلى ساعات عديدة ومتوالية أتحدث فيها إلى تلامذتي المعنيين بدءً بالتاريخ ومعناه والمدارس المختلفة فيه، وسرداً لحياة المؤرخين الكبار، ونظرة إلى نشوء العلم أو فلسفة التاريخ في الماضي وحتى الوقت الحاضر، كما أُجمل دراسةً حول الطرق المختلفة والاستنباطات المختلفة حسب المدارس الإعتقادية المختلفة للتاريخ منذ زمن أرسطو ولحد الآن، ثم أتناول البحث في الإنسان ومعنىٰ الإنسان، منذ زمن أرسطو[1] إلى زمن ظهور إنسانية سارتر[2] (نظرية أصالة الإنسان Humanism

(١) أو أرِسطاطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م) فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية. مؤسس مذهب «فلسفة المشائين». أهم مؤلفاته: «المقولات»، «الجدل»، «الخطابة» «السياسة»، «النفس»، «كتاب ما بعد الطبيعة». «الناشر»

(٢) سارتر (جان بول) sartre (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠م): فيلسوف وكاتب وناقد فرنسي. ولد في باريس. تأثر بظواهريّة هوسرل وهايدغر، وعمل على التعريف بها في فرنسا. من رواد الوجودية المتشائمة وأبرز ممثليها، قال إن الوجود متقدم على الذات أو الماهية، وإن الإنسان مطلق الحرية في الإختيار، ثم انحاز إلى مبادىء ماركس. «الناشر»
عرض أفكاره في محاولات وقصص ومسرحيات مشهورة، منها: «الكائن والعدم»، «طرق الحرية»، «الأيدي القذرة»، «الجدار». رفض جائزة نوبل عام ١٩٦٤م. «الناشر»

مروراً بالشرق ومعنىٰ الإنسان في بلاد الشرق، وفي المدارس الدينية والعرفانية والفلسفية الخاصة بالهند والصين وإيران، والأديان اليهودية والمسيحية والإسلام، لنتوصل عندئذ إلىٰ معرفة العلاقة بين الإنسان والتاريخ. ولكن تطبيق أي من هذه الأفكار لم يكن يحصل في السابق ولا يمكن أن يحصل في المستقبل، وحتى لا يتسع الوقت أن أشير إلى العناوين التي أذكرها بالشكل الذي ينبغي. أنا أحاول ـ على الأقل ـ أن أوضح شيئاً ما حول التاريخ والإنسان بحيث أزيل عنها طابع المستحيل لكي تصبح أمامنا بصورة مشكلة، وبناءً على ذلك اقتضت الضرورة أن ابدأ من الخاتمة. يعني توخيت الإفتراض بأن تلك البحوث أولية ومتفق عليها، ومن المؤمل ـ وأنا على يقين ـ أن يكون هذا الإفتراض غير خالٍ من الحقيقة، والسيدات والسادة الحضور على معرفة بالقضايا المتعلقة بالعلوم الإنسانية لحد يفقهون ما أقول، ووفق هذا التشخيص أبدأ كلامي بالإشارة إلى المدارس والنظريات المختلفة خاصة المطروحة منها اليوم على بساط البحث.

إنَّ المعضلة التي نعاني منها ويعاني منها الأوروبيون على حد سواء، بدائية سهلة على الرغم من أنها لغوية. ولأننا

نستخدم الألفاظ للتفاهم والتعبير فلا بدَّ أن نتفق على الألفاظ التي هي أداة التفاهم ونقل الأفكار ونكون على بينة منها.

يوجد تناقض لفظي في موضوع التاريخ، كما هو الملاحظ في كل من اللغات الفارسية والعربية علىٰ حد سواء، ولنفس اللفظة مثلاً يوجد في كل من اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية مفهومان مختلفان عن بعضهما يستخدمان للدلالة على كلمة واحدة. فمن المعروف بأن هناك (علماً) و(موضوع العلم)، مثلاً: الأرض، السماء، العناصر، المجتمع، النفس، مواضيع العلم. وإن علم الأرض (الجيولوجيا)، الكيمياء، علم الإجتماع، علم النفس، هو العلم نفسه. فكلمة (طب) اسم العلم، وموضوعه جسم الإنسان والأمراض التي تصيبه. وتبعاً لذلك فموضوع هذا العلم يحمل اسماً آخر مثل (أمراض الجسد)، والعلم نفسه يستعاض عنه بلفظة أخرى هي (الطب).

أما في التاريخ، فالمفهومان (موضوع التاريخ) و(علم التاريخ) اشتركا بلفظة واحدة وهي (التاريخ)، لبيان مدلولاتهما.

إن (موضوع) علم التاريخ يطلق علىٰ مجموعة الظواهر والحقائق، العلاقات، الأفعال والإنفعالات، الولادات

والوفيات من جراء الحوادث، نشوء الطبقات، إطلالة ونمو واضمحلال الحضارات والمجتمعات، كافة الظواهر والحوادث التي تخص الإنسان وعلاقته (بالطبيعة) و(بالآخرين) منذ العصور الغابرة وحتى يومنا هذا. هذا موضوع التاريخ الذي نطلق عليه كلمة (تاريخ).

ويتناول الأمر الثاني علمنا واطلاعنا وإيماننا بالعلاقة بين هذه الظواهر، كما يشمل هذا الأمر إيماننا بالطريق الذي سلكته البشرية على مر العصور، والقوانين التي تحركَ ضمن إطارها الإنسان وزاول نشاطاته الحياتية المتكاملة. وهذا التعريف ينطبق على (علم التاريخ) والذي بدوره نسميه (تاريخاً).

وعلى هذا الأساس يجب الإنتباه إلى صياغة التعابير التي سترد في معرض كلامنا، فتارة نقصد موضوع التاريخ الذي يغطي الوقائع المحيطة في الماضي والحاضر، وتارة أخرىٰ نريد بها علمنا بالأصول والقوانين الموجودة في نص تلك الوقائع والحقائق في ذلك الزمان.

ولكن، علىٰ الرغم من أن نطاق بحوثنا التاريخية، ذات الطابع الميت والمنبوذ التي انحصرت في خزن المواد التاريخية قائم لحد الآن، وجرت العادة أن نسمي أحدهم

مؤرخاً لإكتسابه معلومات وافرة عن (الماضي)، فمثل هذا (المطّلع) يدعى (مؤرخ)، أي أن من توفرت لديه معلومات عن (موضوع التاريخ) وليس (علم التاريخ). وبذلك علينا أن نسمي من تجمعت في بدنه كل أنواع الأمراض والأوبئة طبيباً!.

التاريخ، علم صيرورة الإنسان

أما اليوم فلا يطلق علىٰ مثل هؤلاء صفة مؤرخ، وعلى حد هجاء الطلبة: (لا يمكن أن نسمي ما يبحث في سيرة الأموات غيبةً، تاريخاً). كما أن سرد قصة حياة أصحاب الجاه والذوات ليس تاريخاً. لا يقصد بأن مثل هذه الأعمال غير ذات قيمة، كلا، لو كان عمل هذا الإنسان موجهاً يمكن أن نضعه في صف الباحثين. فمثلاً مسؤول الإحصاء أو مراسل لصحيفة ما يجوب القرىٰ والمدن ويجمع الإحصاءات والمعلومات، ثم يقدمها إلى الباحث أو العالم الإجتماعي، الذي يصب ركائز بناء علم الإجتماع من هذه المعلومات والأرقام التي تخلو من العلاقات السببية أو الشعبية، وتضحى «مواد بناء» جامدة دون روح وشكل ومعنىٰ، فيستخلص من أسس ومبادىء علم الإجتماع قانوناً لعلم الإجتماع. فمن انهمك بكيفية استنباط القانون هو الباحث أو العالم

الإجتماعي وليس من قام بجمع وتقديم المعلومات على الأصعدة المختلفة. فهذه هي مثل مواد البناء التي تطرح في مكان العمل، ويقوم أحدهم بتصميم المبنى الذي يراه صالحاً بعد البحث والتحقيق من صلاحيته، ويقوم فرد آخر بجلب الآجر والإسمنت والتراب وما إلى ذلك ووضعها بين أيدي المصمم ذاك.

على أية حال، فإن «عمالة العلوم» ماهم «علماء العلوم»، ثمة فرق بين (مطلع) و(مفكر). كأن من يدّخر المواد ـ كمواد البناء في مثالنا ـ يدعى مؤرخاً كما هو دارج، ولكن اليوم نلاحظ بأن التاريخ يبدأ بعد خزان المواد التاريخية، أي منذ أن تكشف الوقائع النقاب عن الذهنية العلمية عن طريق التفحّص والتمعّن والبحث العلمي والموضوعي والمنطقي لعقل عالم، فيلسوف أو باحث إجتماعي، يستطيع باستخدام تلك المواد التي جلبها الرواة أن يبني علم التاريخ[1].

---

(١) للعلم مرحلتان منطقيتان: مرحلة حسيّة ومرحلة ذهنيّة. فالمطلع يمر بالمرحلة الأولىٰ وأدوات عمله هو (الحس) و(الذاكرة) ومهمته هو التسجيل. أما في المرحلة الثانية فيظهر العلم والعالم الذي يستخدم (المنطق والعقل) للتوصل إلى تحليل واستنتاج. وللأسف لم يتسنَّ للتاريخ عندنا أن يخطي خطوة واحدة لتجاوز المرحلة الأولىٰ، وليس هذا «بنقص علمي» فحسب بل «كارثة إجتماعية» وفراغ مهيب من مفاهيم الإنسانية.

ووفق هذه النظرة يأخذ التاريخ معنىً آخر وقيمة وأهمية آخريتين بشكل عندما سُئل (أمرسون)[١] ما هو التاريخ، أجاب: «ما هو الشيء الذي ليس بتاريخ». أي بهذا المعنى القديم للتاريخ كان بوسع نابليون أن يقول: (إن التاريخ عبارة عن أكاذيب وابتداعات يصدقها الجميع).

ولكن بالمعنى الذي ذهب إليه (أمرسون)، حقاً ما هو الشيء الذي ليس بتاريخ؟ أو أي شيء ذكره التاريخ ولم يواجهه الإنسان في حياته؟ أو لا علاقة له به؟ ولهذا حلّ التاريخ محل الله في المدارس الفلسفية التي أنشأها هيغل وسارتر.

فعلى الرغم من أن مثل هذا الحديث برأينا لا يذهب سدىً، ولكن أهمية التاريخ في عالمنا اليوم تبيّن بشكل كامل بأنَّ التاريخ حل محل الله سبحانه، وإذا كان التعبير عنه خارج عن نطاق عبادة الله تعالى، فمعناه برأيي أمرٌ إلٰهي محض، بل إسلامي أصيل، يقصد به بأن الله عز وجل أنشأ المخلوقات والكائنات كلها في الوجود. وفيما يخص الإنسان، فإن

---

(١) أمرسون (رالف) (١٨٠٣ ـ ١٨٨٢م) كاتب وشاعر وفيلسوف، زعيم الحركة الفلسفية الأمريكية المعروفة بالترنسندنتالية. مؤلفاته الرئيسية «الطبيعة» (١٨٣٥) ـ «مقالات» (١٨٤١ ـ ١٨٤٤) ـ «الرجال الأوائل» (١٨٥٠). «الناشر»

الرسالة الإلٰهية والخلقية سُلّمت بيد الإنسان وفوّض من قبل الخالق جلَّ وعلا، وتهدف تلك الرسالة إلى بناء الذات، الذي يستعان بعامل التاريخ كأداة لتنفيذ رسالته. ومن هنا وصف البروفسور ـ أوت شاندل ـ التاريخ بقوله: «إنه علم صيرورة الإنسان». إن «صيرورة» تنشأ في التاريخ وبواسطته، أي أن الإنسان يستعين بالتاريخ ليبني كيانه وشكل إنسانيته.

الشخصية التاريخية للإنسان

نلاحظ بأن الإنسان، والشخصية التي اتخذها اليوم كإنسان، والخصائص التي صبَّها في إطار الإنسانية، لم تكن موجودة منذ الأزل. فلم يكن لإنسان (الأندرتال) هذه الخصائص والمزايا التي نراها لدىٰ إنسان اليوم، وكل هذه الخصائص لم تنشأ فجأة في أوروبا، روما، أو في الشرق والغرب، ولم تكتسب من مكان أو تنزل من سماء. إن إنسان (الأندرتال) هذا قرد بمظهر إنسان، على الرغم من كونه من الناحية الفيزيولوجية، القوام والشكل الظاهري حيواناً، ولكنه كان إنساناً يختلف عن الإنسان الحالي والتاريخي من ناحية الخصائص الإنسانية. ظهر على طول التاريخ بهذا الشكل الذي عليه، قرد بمظهر إنسان جعله التاريخ إنساناً بمظهر قرد.

وهنا تأتي فكرة جديدة لتطرح نفسها على بساط البحث وهي أن (أنا) و(أنتم) كلكم الذين حضرتم هذه الجلسة. أي الـ(أنا) بصفة فرد إنساني حضر مجلسنا، مستقراً على الأرض، ذو وزن، ومتطلبات، وأحاسيس وقدرة على التفكير، (لا نقصد الإنسان ككل، ولا الإنسان المتعقل، ولا الإنسان على طول التاريخ، «أنا» بالذات و«أنت» بالذات الموجودين فعلاً:، وعلى طول الثلاثين، الأربعين والخمسين سنة التي نحياها لم نقدر على النشوء. وقبل الثلاثين أو الأربعين والخمسين سنة لم نكن نولد من العدم، على الرغم من عدم تمكننا من أداء النشاطات كالأحاسيس، العواطف، الخصائص، النزعات الفكرية، والتعصبات والرغبات في مرحلة القفولة، كنَّا مخلوقات مجردة من أيِّ لون إنساني، وكان بمقدورنا أن نكتسب الصفات طبق المكان الذي نتواجد فيه، ولأن ولادتنا ونشأتنا في هذا المحيط أصبحنا بالشكل الذي عليه اليوم. وعلىٰ خلاف ما تبادر للأذهان خلال المرحلة الأولىٰ، فأنا وأنت على طول المدة التي عشناها لم نكن مصطنعين ومسيّرين. لم نبدأ منذ أن ولدنا، بل أصبح أي فرد منا كتاباً لتاريخ مجتمعه، أي فرد واقعي كالموجود هنا هو ليس

نتيجة لمعلول الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين سنة من عمره. وليس بمعلول ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة أو أكثر من تاريخه. لأنني الجالس هنا، والمتحدث إليكم، أفكر (كما ترون وتشعرون وتفهمون وتفكرون وتحكمون على المواقف) وما كل ما أملك من خصائص أرى بالضبط بأن حملة سعد بن أبي وقاص علىٰ إيران (حادثة تاريخية وقعت قبل ١٤٠٠ عام). عوامل الهجوم المغولي على إيران قبل سبعة قرون ونصف القرن، ظروف الحروب الصليبية، ظهور الإسلام، ظهور زرادشت[١] قبل أكثر من ٢٦٠٠ عام، ظهور كورش ونشوء الخصائص الوطنية لإيران قبل ٢٥٠٠ عام، حملة الإسكندر المقدوني من اليونان علىٰ إيران في زمن الحخامنشة قبل أكثر من ٢٣٠٠ عام، ظهور بوذا[٢] ومهاويره[٣] ولاوتسو[٤]

---

(١) زَرادشت Zarathushtra: توفي نحو سنة ٥٨٣ ق. م، يعتقد أنه نبي الفرس الأقدمين ومصلح ديانتهم الأولى، من أتباعه الإخمينيّون والساسانيّون. «الناشر»

(٢) بوذا ـ Buddha: حكيم هندي أسس مذهب البوذية ضد البرهمانية في القرن الخامس ق.م، فلسفته مثالية تقوم على عيشة الألم والزهد والتجرّد من الأنانية والشهوات للوصول إلى الفناء التام أو النيرڤانا. ينتشر أتباعه في اليابان والصين والتيبت والنيبال وكوريا والهند الصينية. «الناشر»

(٣) مهاويره ـ Mahawira: مؤسس طائفة الجين الهندوسية القرن السادس ـ ق.م.

(٤) لاوتسو ـ Lao tseu: فيلسوف صيني (القرن ٥ أو ٦ ق.م) يعتبر مؤسس مذهب الطاوية أهم مؤلفاته كتاب الطريق والفضيلة «الناشر»

سقراط[١] و. . . لجوء العلماء الروم إلى إيران في زمن الساسانيين[٢] وتأسيس العساكر للخواجة نظام الملك[٣] وحتىٰ الأذواق والتفنن التي تحلّىٰ بها الفردوسي[٤] وحافظ[٥]،

---

(١) سقراط: (نحو ٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق.م) فيلسوف يوناني، ولد في اثينا وعلّم فيها فأحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه وفكره، حيث جعل محور فلسفته معرفة الإنسان نفسه ودرس تصرفاته والنواميس التي تدفع إليها وبهذا أسس علم الأخلاق. كان تدريسه لطلابه شفهياً عن طريق السؤال والجواب وبهذا ساعد طلابه على إكتشاف المعرفة بذاتهم. حارب السفسطة وانتقد الحكم فاتهمه أخصامه بالزندقة فحكموا عليه بالإعدام، لكنه فضّل الموت على الهرب احتراماً لشرائع مدينته، شرب السم فمات في سجنه، وصلت إلينا تعاليمه عن طريق كُتب تلميذَيه: أفلاطون وكسينوفون. «الناشر»

(٢) السَّاسَّانيّون: سلالة فارسية قامت على أنقاض الأرشاقيّن الفرثيين ودامت حتى الفتح الإسلامي ٢٢٤ ـ ٦٥١م، كانت عاصمتها المدائن، أسّسها أردشير الأول الذي استولى على طيسفون وقضى على أرطبان الخامس آخر ملك أرشاقي. من ملوكها شابور ١َ و٢َ وبهرام ٥َ وكسرى ١َ و٢َ. غزت جيوشها أرمينيا وسورية ومصر، حاربها الروم البيزنطيون. قضى الفتح الإسلامي على آخر ملوكها يزدجرد ٣َ. «الناشر»

(٣) نظام الملك: (١٠١٨ ـ ١٠٩٢م) أشهر وزراء السلاجقة، ألبَّ أرسلان وابنه ملكشاه، تفرّد بالحكم. أنشأ «نِظاميّة» نيسابور وبغداد (١٠٦٥) وأقرَّ الأمن في فارس والعراق. اغتاله الإسماعيليّون. من آثاره «سياستنامه». «الناشر»

(٤) فردوسي (نحو ٩٣٢ ـ ١٠٢٠م): من كبار شعراء الفرس. له «الشاهنامة» أو كتاب الملوك وهو ملحمة من ٦٠,٠٠٠ بيت من الشعر. «الناشر»

(٥) حافظ الشيرازي (توفي ١٣٨٩م) شاعر عرفاني فارسي، له «ديوان حافظ» «الناشر».

سعدي[١] ومولوي، لكل ذلك ولكل العوامل والظروف التي حدثت قديماً أثر مباشر علىٰ البناء الذاتي لشخصيتي الحالية.

إني أحسّ بالظروف التي كوّنت شخصيتي بهذه الكيفية وهذا اللون الذي أراه مؤثراً على كياني وأخلاقي وسلوكي وآفاق نظري ومزاجي، أحسّ بالأنامل التي مست وجودي والممتدة عبر العوامل والظروف الإجتماعية والسياسية للتاريخ. ودون ريب، لو كنت أعيش في مجتمع لم يظهر فيه زرادشت، ولم يتعرض إليه اسكندر، ولو لم يبعث نبي الإسلام ﷺ لكنت اختلف من حيث الحالة الفكرية والمشاعر مما أنا عليه في الوقت الحاضر، وكنت إنساناً آخر، وكانت الـ(أنا) غير الذي ترون.

وجود وماهية، واختيار الإنسان

وطبقاً لما ذكرنا وعلى حد قول سارتر وكذلك هيغل[٢]، شيخ المتحدثين المشهورين حول فلسفة التاريخ:

---

(١) سعدي الشيرازي (١١٨٩ ـ ١٢٩١م): شاعر وأديب إيراني كبير، ولد في شيراز، درس في نظامية بغداد، أهم مؤلفاته: «البستان» و«غلستان» و«الديوان». وقد ترجمت كتبه إلى عدة لغات. «الناشر»

(٢) هيغل (فردريش) ـ Hegel (١٧٧٠ ـ ١٨٣١م): فيلسوف الماني، ولد في شتوتغارت. من أرائه إنَّ الكائن والفكر شيء واحد هو الفكرة تتطور على مراحل: الإثبات ثم النقض ثم الخلاصة. من مؤلفاته: «المنطق الكبير» و«مبادىء فلسفة الحق». «الناشر»

التاريخ عامل ينفث الروح في الإنسان، حتى ولو كان تمثالاً دون وعي أو أحاسيس، وبنفثه الروح فيه يمنحه كل معاني الإنسانية. وجواباً عن سؤال: أليس هو كذلك؟ يمكننا أن نقول: بلىٰ، أنه هو. أما بالنسبة للسؤال: كيف يكون ذلك؟ لا يمكننا أن نقول شيئاً.

لقد كان الإنسان موجوداً ولم يسبقه آخر، وأن معنى فلسفة الوجودية هو تقدم الوجود Existance عن الماهية (أو الجوهر) Essence. ويعود وجود الإنسان في البداية إلى الله (وهذا ما ذهب إليه ياسبرس[1] الألماني، وكيركغارد[2] الدانماركي وغيرهم من فلاسفة الوجودية المذهبية). أو يقولون بأن وجود الإنسان في البداية يعود إلى الطبيعة (وهو ما خلص إليه سارتر ورواد الفلسفة الوجودية المادية). وبعد ذلك تمخضت كيفية إنسانية الإنسان على طول التاريخ بواسطة عمله Praxis للتمهد لظهور الماهية أو الجوهر. ولو اتضحت لدينا مرامي هذه القضية بصورة تامة، لاتضح لنا ما نريد أن نبحث فيه.

---

(١) ياسبرس (كارل) ـ Jaspers (١٨٨٣ ـ ١٩٦٩م): فيلسوف الماني، من أكبر فلاسفة الوجودية المسيحية. «الناشر»

(٢) كيركغارد (سورن) ـ Kierkegaard (١٨١٣ ـ ١٨٥٥م): فيلسوف ولاهوتي دانمركي وجودي. عللَّ الوجود في مؤلفاته بشيء من التشاؤم. «الناشر»

يقال بأن كل ما موجود في الطبيعة جاء بعد نشوء ماهيته، أي أن نشأة الماهية تسبق الوجود، وهذا هو الصحيح، فمثلاً أنا نجّار أُريد أن أصنع منضدة بقياسات ومواصفات معينة، وبوزن محدود، ومن نوع معين من الخشب، ولغرض كذا استعمال وكيت خصائص. . . إلى آخره، وهذه كلها ماهية سبقت صناعة المنضدة أو وجودها، فالعملية صارت كالآتي: أن تكون ماهية المنضدة في ذهني ثم آتي بالمنضدة إلىٰ حيز الوجود.

كان لله تعالى صور وكيفية كل الأشياء التي صنعها في عقله ونيته ثم أعطىٰ لهذه الماهية الوجود. وعلى سبيل المثال أراد أن يخلق غضنفراً بشكل جسم وذنب ورأس ولون معين وشهامة وقدرة معينة وكل خصائص الأسد، فكان هذا الأسد في نيته، تكونت لديه ذهنية ليجعله بالشكل الذي ذكرنا. ففي البداية كانت ماهية الأسد في إرادة وروح الله سبحانه، ثم شرع بخلقه وجعله موجوداً في العالم الخارجي. إذن فإن كل الأشياء تسبق الماهية ووجود ذلك الشيء. وهذا يعني بأنّ ماهية هذه الأشياء تؤدي إلى تحقيق وجودها، ما عدا الإنسان الذي أعطاه الله وجوداً في الوهلة الأولى، أي وجود؟ وجوداً صرفاً. هل هو عدد مثل واحد، خمسين، ستين، سبعين، وزن؟ أي شكل من الصناعة؟ وأي لون؟ وكيف؟ بأية حالة؟

سيئة؟ حسنة؟ قبيحة؟ جميلة؟ ولا أي واحدة منها.

وإن هذه (الكينونة)، وهذا (الموجود) بدون أي شيء، شرع ببناء كيفيته لذاته، واختار ما يريد بنفسه. (فاختار) و(صمم) وعمل، وفي هذا (التيار) اكتسب لنفسه الصفة والماهية وأصبح إنساناً، نوع الإنسان في الأمس واليوم علىٰ وجه الأرض، ظهر للوجود بمشاركة الله سبحانه، فإن الله منح المصل الأصلي أو الخميرة الأولية، وأخذ هو بدوره يظهر هذه الخميرة بالشكل الحالي، فأعطاه الماهية أو الجوهر. وكل هذه الصفات التي تؤلف بمجموعها كيفية الإنسان اليوم تحققت بواسطة التاريخ.

إذن فالوجودية تعرّف التاريخ على أنه (التيارات) التي استمرت في خلق وجود الإنسان بواسطة الله أو الطبيعة. وهاتان الإرادتان: الأولى الله (أو الطبيعة) الذي صنع وجود الإنسان، والثانية (التاريخ) الذي وهبه الماهية الإنسانية الحالية، كلاهما خلقا الإنسان[1].

---

(١) في قصة خلق آدمعليه السلام، يلاحظ نوع خاص من الوجودية، وجودية تخالف مساعي سارتر اللفظية والمنطقية. فيعلن الله بأنه يريد أن يخلق آدم خليفة له في الأرض. وأخذت الملائكة، التي كانت بمثابة الأناس الذين خلقوا قبل آدم، أخذت تتحدث عن الأهمية أو الجوهر الفاسد لآدم قبل وجوده. ولم يرد في كلام الله سبحانه ما يصدق هذا القول ويكذبه سوى (أن الله يعلم ما لا تعلمون)، ولم

مؤسس الوجودية

أود أن أُوضح نقطة خاصة ترد في حديثنا. عندما أقول أما الله أو الطبيعة نابع من أن الوجوديين علىٰ خلاف ما روج لنا، لم يكونوا بالتأكيد مجردين عن الله تعالى، بل يمكن أن أذهب أبعد وأقول بأن الوجودي (كيركغارد)، المؤسس الأول، أو (ياسبرس) المعاصر لم يكونا يعبدا الله فحسب، بل كانا من أبرز الوجوه الدينية في القرن الحالي والقرن التاسع عشر. وكان كلاهما من أكبر الفلاسفة المؤمنين بالديانات، ذلك في القرن التاسع عشر وهذا في القرن العشرين. ثم جاء بعدهما (كانت) و(سارتر) ولحد وسط الطريق جاء (البيركامو)(١)، من فلاسفة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي عانت فيها أوروبا من الأزمة الفكرية المطبقة، ليفصلوا

يتطرق إلى ماهية أولئك أوذاك. إذن منذ أن خلق آدم وضمن اختباره مع الملائكة يفوز وتوهب له الجنة، ولكن لدى عصيانه يطرد منها إلى الأرض و. . . كلها صفات وخصائص تظهر على طول الزمان وبإرادته بالذات. في البداية لم يعص آدم ربه، ثم عصاه، وتستمر إلى القضية الطويلة لحواء وقابيل وهابيل. . .

(١) كامو (البير) ـ Camus: (١٩١٣ ـ ١٩٦٠م) أديب فرنسي ألمَّ بالفلسفة وعلم النفس. ولد في مندوفي بالجزائر، تميّز بقلق الجيل المعاصر وخيبته من الحرب العالمية الثانية، عبّر عن شعوره بعبثية المصير الإنساني في مؤلفات مميّزة، أهمها: «أسطورة سيزيق» دراسة نفسية، وروايات «الغريب» ١٩٤٢، «الطاعون» ١٩٤٧، «السقوط» ١٩٥٦، ومسرحيات «كاليغولا» ١٩٤٥م، «العادلون» ١٩٤٩م. حاز على جائزة نوبل عام ١٩٥٧م. «الناشر»

فلسفتهم عن الله، فأضحت وجوديتهم وجودية مجردة من الله. في حين أراد مؤسسو الوجودية من هذه الفلسفة أن تؤدي رسالتها في تبرير الأفكار الدينية ولكن (نحن دائماً نعرف الأفكار والآراء والمدارس الفلسفية والإجتماعية والفنية لأوروبا، نعرفها لا بالشكل الموجود عليه، ولكن بالشكل الذي أصحابها يريدون، وخدمة لأهوائهم يملون علينا تعريفاً يجب أن نعرفه ونقبله دون سواه) وهذا مدعاة للأسف.

الإنسان وحده يعرف نفسه وعالمه

لهيغل بحث آخر في التاريخ يشبه ما ذكرنا، على الرغم من أن ليست ثمة أوجه تشابه بين مثالية هيغل والوجودية. يؤمن هيغل بأن في البدء، في ذلك الأزل كانت ثمة روح مطلقة، فكرة مطلقة أو مثال مطلق، يعني الله (بوسعنا أن نسميه الله، ولكن إلٰه بكل العظمة والإجلال الإلهي إلاّ أنه من حيث لا يشعر ـ أي عفوي)، وتجلّىٰ وجود هذه الروح المطلقة على ثلاثة أُسس (تريود) للجدلية (الديالكتيك)، وأصحبت الطبيعة المادية للخلق. لقد تجلت الروح المطلقة في الطبيعة المادية، وتكاملت الطبيعة بشكل الزرع، وتكامل الزرع بصورة حيوان، وتكامل الحيوان بصورة إنسان، ووفق ذلك مرّت الروح المطلقة الأزلية، وتلك الفكرة المطلقة أو المثال المطلق، ذلك

(الأنا) المطلق، مرّت بمراحل تدريجية لتكامل الطبيعة، وظهرت بصور متكاملة أكثر وأوضح، وتقترب من معرفة الذات لتصل إلى صورة الإنسان حيث يتجلّىٰ عنده الشعور أكثر مما سبق وتنشأ لديه معرفة ذاته، لماذا؟ لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد في الطبيعة الذي يشعر بذاته، يعرف الطبيعة، ويفكر، لديه الإرادة، يختار، يتمرّد ضد ما يراه ظلماً بحقه، ويغيّر السنَّة المفروضة للطبيعة، ويسعىٰ أن يفرض النظام الذي يرتأيه علىٰ النظام الموجود، يصنع ويبدع ويخرب.

نلاحظ بأنه يعمل كالإلٰه على الرغم من عدم وجود أوجه شبه بينه وبين الله، وأن الله وحده في الوجود القادر على التفكير والتنفيذ كما يريد، يخلق، يحيي ويميت، يختار. كل الكائنات والمخلوقات المادية الموجودة في الطبيعة، سواء كانت جامدة أو حية، كلها عبارة عن مواد من حيث لا يشعرون بيد الإرادة الإلٰهية، أو إجبار الطبيعة المادية، فلا تمتلك من ذاتها ولذاتها إرادة ومعرفة. ينمو الزرع إلى أن تظهر سنابله وأوراده وتثمر ثم تذبل وتجف، فتتحرك الريح، وتتعرى الجبال وتتآكل، ويدور القمر حول الأرض، كلها خارج استطاعتها، دون أن تعلم ودون أن تشعر، تخضع للقانون الذي نشأ واكتسب نظاماً وفقه. ولكن الإنسان على خلاف جميع الكائنات، مفكر ومبدع

وصانع وعاصٍ وواعٍ لنفسه ولما يحيط به.

ولباسكال[1] في (اللانهائيين) (lesdeux infinis) كلامٌ معروف ورائع: «من الممكن لقصبة ضعيفة أن تقتل إنساناً ـ قصبة ضعيفة لحد لا نهائي ـ، ولو تسنت لكل المخلوقات أن تتحد وتتحالف وتعزم على قتل إنسان ما، فإن الإنسان هو أقوى ممّن تآمر عليه ـ أقوى لحد لا نهائي ـ، ويعود السبب إلىٰ أن كل القوىٰ المتحالفة في الطبيعة لا تعي ولا تحس بأنها تروم قتل إنسان، ولكن الإنسان الذي يراد قتله فعلى العكس يعرف

---

(١) باسكال (بليز) ـ Pascal (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢م) شاهد فريد على زمن فريد يتمثل بالعصر الكبير للنهضة الفرنسية، فيزياتي ورياضي وأديب وفيلسوف فرنسي، له اكتشافات علمية، من مؤلفاته: كتاب «الخواطر» في الدفاع عن الدين المسيحي، وكتب وهو في الحادية عشر رسالة في الأصوات، واستطاع وهو في الثانية عشر أن يهتدي إلى القضية الثانية والثلاثين في كتاب اقليدس، وألّف وهو في السادسة عشرة محاولة في المخروطيات، وبعدها اخترع وهو في التاسعة عشر آلة حسابية، نبغَ في الفيزياء وأسس مبدأ «توازن الموانع». أرسى الأسس الأولى لـ«حساب الإحتمالات» وكتب رسالة المثلث الحسابي عام ١٦٥٤م وأتبعها برسائله حول الزوليت، وصاغ مبدأ الحساب اللانهائي الصغر على أساس أن الطبيعة المولعة بالوحدة تقيم علاقة تدعو إلى الإعجاب دوماً بين الأشياء الأكثر تنائياً في الظاهر». وفي الوقت نفسه كان يؤلف: «خطاب في انفعالات الحب» في العام ١٦٥٧ كتب «الروح الهندسي ومن فن الإقناع».
تمرد في العام ١٦٦١ على إرادة البابا (الحبر الأعظم). كانت كلماته الأخيرة لحظة لفظ الروح في ١٧ آب ١٦٦٢ عن تسعة وثلاثين عاماً وشهرين «أرجو ألا يتخلى عني الله أبداً». «الناشر»

ويدرك مثلاً أنه سيقتل لو أريد له ذلك».

وعليه، وبهذا القدر، يمتلك الإنسان قدرة عجيبة أكبر من القدرات المادية، يتمتع بموهبة العلم وقدرة التفكير تفضله علىٰ سائر الكائنات، كماله معرفة بنفسه وبالمخلوقات المحيطة به بشكل لوحظ بأنه استخدم إرادته واستعان بالعلم والتقنية، ليغير النسق الجغرافي والظروف الإقليمية، وقوانين علم النبات، وعلم الحيوان، ليسخر الطبيعة لمنفعته. فالنبات الذي يجب أن يجف ويصفر لونه وفق النظام الطبيعي، يتدخل الإنسان فيغير مسير ظاهرته الطبيعية فيحولها إلى ما يجنى بها فائدة قصوى، لمن تعود هذه الإرادة إذن؟ لقد ذهب هيغل بالقول بأن هذه الإرادة هي الروح المطلقة نفسها، إنها «الله» بأكمل نوع في مجرىٰ كمال الطبيعة الذي هو الإنسان، تجلت فيه الروح وتوصلت إلى معرفة ذاتها.

جذور الرؤية المعاصرة للتاريخ وفق المثالية المطلقة لهيغل

وبعد ذلك، عرج هيغل إلى الأصل والعرق الذي لا طائل فيه، وصار ينشد أشعار القومية كالجاهلية وللأسف! تابعت تلك الروح المطلقة مع الإنسان مسيرتها في الطبيعة، وتوصل الإنسان بكونه يحمل الروح المطلقة الإلهية إلى التكامل المعنوي، وهو نفس المعرفة بذاته وبالعالم المحيط بصورة

أكثر، (فيصبح العاقل والمعقول في فلسفته واحد) فتؤول هذه الحالة إلى الروح المطلقة، ويتحقق لديه المعرفة الوافية والمنطق والعقل والرأي السديد والتفكير الدامغ الساطع.

ولأن الشرقيين هم أكثر إحساساً وإلهاماً واشراقاً من بين بقية الأناس، ويرتبطون بما لا تعرف كنهها ذاتهم، وظهروا في حالتهم هذه أكثر نقصاً. بينما نجد الإنسان الأوروبي قد وصل إلى مرحلة العقل والتحليل والتأويل والمنطق والتفكير السديد ومعرفة ذاته بشكل أدقّ، فلذلك فإن الإرادة المطلقة تجلت عنده أكثر من غيره.

وفي الوقت الحاضر (منذ عصر النهضة الصناعية) الذي يمثل نهاية عصر الدين والمذاهب وبداية عصر العقل أو الفلسفة، فالشرقي عرفاني ومتدين، بينما الغربي عقلاني وفلسفي، فالرأي المطلق آخذ بالتبلور والتجلّي والتكامل العقلي. وعليه فإن الروح المطلقة، أو الإلٰه الأزلي، لدىٰ الإنسان الغربي يتجلّى بشكل أكثر وضوحاً لدىٰ العنصر الجرماني (أي الألمان) من الناحية الفلسفية والمنطقية والدماغية.

لا بدَّ للروح المطلقة للعالم الأزلي قد تجلت بشكل أكثر عند الألمان من ذوي وأقارب السيد هيغل، خاله أو عمه أو

حتى أمه. . . لا تضحكوا، هذا ما أقوله أنا، ولكن ما يقوله هو لمثير للضحك أكثر، إنه يقول: ومن المجتمع الجرماني حكومة الـ(Etat)، التي هي محط تجلّي الروح القومية أكثر، أي أبرز ظاهرة أو تطلع للروح المطلقة. ومن الحكومات السلطة الحالية لألمانيا، تجلت روحها أكثر مما تجلت في كل المخلوقات. وأن، وفقاً لهذه الفلسفة، الإلٰه المطلق يتوصل إلى معرفة ذاته مع المسيرة الديالكتيكية للطبيعة بواسطة الإنسان، وهو ما ذهب إليه بقوله «بأن الله هو الذي يحتاج إلى الإنسان لا الإنسان يحتاج إلى الله». وعليه فإن الله في فلسفة هيغل يصبح أحد الأعضاء الربانيين في بلاط سلطان تربية وإعداد الرّب في المانيا. وهذا يبين بأن النبوغ المبدع الصانع للمعجزات مثل نبوغ هيغل، يؤدي به إلى شطحات مثيرة للسخرية كما رأيتم من أتباع الأنانية والتمسك للمحلة أو المكان أو العائلة. . . فهل إن مثل هذه الحادثة لا تفزعنا نحن تلامذة ومتخرجي هيغل غير المكتملين، هل نحن مصونون؟

نلاحظ أن التاريخ في فكر هيغل (لو تسنى لنا أن نضع جانباً قبح مقطعه الفلسفي وأن نرمم تعابيره، وخاصة لو تمكنا أن نبين فكره الأصلي من تعابيره العميقة ومعرفة ثقافتنا، ليصبح أمراً جاداً) هو عبارة عن عامل يسيّر الروح المطلقة للعالم

الأزلي في المسيرة التكاملية لعالم الطبيعة. وإن التاريخ هو الذي يصل بالإنسان في المستقبل إلىٰ المراحل المتعاقبة للتكامل الذي يصبو إليه، يوصله حيثما يتحول إلى نفس الروح المطلقة. يعني ظهور نفس الإرادة والقدرة على الخلق وروح معرفة الذات في إنسان العصر الحاضر، ظهوره بشكل أقوى بكثير وأكمل لكي يصبح الإنسان إلٰهاً، وعلى حد تعبير هيغل بأن الله وصل في الإنسان بكمال العقل ومعرفة الذات. ويصبح الإنسان مسلطاً على الطبيعة بشكل أن الله، خالق العقل المطلق، هو الخالق وصاحب الإرادة المطلقة بحيث أن كل قوانين الطبيعة ستصبح في قبضته وتملّكه، فيتحول الإنسان إلى روح مطلقة، فكر مطلق.

لا يهمنا مدىٰ صحة وسقم هذا الكلام، إن ما أُريد أن أخلص إليه هو كما يلي: الأول قيمة وعظمة التاريخ. والثاني كيفية النظر إلى التاريخ في رؤىٰ اليوم لدىٰ مثالية هيغل المطلقة، سواء كان في المادية المطلقة لماركس[1] أو الوجودية الجديدة لسارتر . والثالث النظرة المادية للتاريخ في مدارس

---

(١) ماركس (كارل) ـ Marx (١٨١٨ ـ ١٨٨٣م) فيلسوف الماني اجتماعي حرّر «البيان الشيوعي» بالتعاون مع أنجلس أسس «الدولية الأولى». أهم مؤلفاته: «رأس المال» وهو دستور الماركسية ـ التي عرفت باسمه ـ والنظام الشيوعي. «الناشر»

الفلاسفة الماديين للقرن التاسع عشر، ولا زالت مكملة هذه المدارس تتوالىٰ اتباعها في الوقت الحاضر. وبصورة عامة يرىٰ هؤلاء الفلاسفة في التاريخ بأنه عبارة عن حركة تكامل الإنسان، هذه الحركة تمتد من ماضي الزمان إلىٰ يومنا هذا وستستمر إلى المستقبل. كيف تكون هذه الحركة؟ مادية، علىٰ أساس سلسلة من القوانين القهرية.

ووفق هذا المعنىٰ فإن التاريخ بذاته مجتمع إنساني، تجمع بشري يتجه بحركته إلى الأمام تبعاً لعوامل قسرية، تماماً كالصخرة الواقعة في طريق جريان مياه النهر، فتحركت تلك الصخرة بسبب قوة الماء الدافعة للأمام، فهذه الحركة لم تكن ناشئة بإرادة الصخرة، أي الإنسان، أو برغبته. وحتى الأبطال المتواجدين في المجتمع الإنساني، يتم تعيين مثل هؤلاء على أساس القوانين المادية الحتمية الكامنة داخل المجتمع (Détérminisme Historique)، ويضطر المجتمع الإنساني، شاء أم أبىٰ، أن يتحرك ويستمر بحركته.

مسيرة التاريخ كما تراها المدارس المادية

ترىٰ الفلسفة المادية التاريخ على أنه عبارة عن شارع تطل عليه منازل معينة ليس إلاّ، فالمنزل الأول مجتمع بدائي رعوي لا طبقي، فالأناس فيه تجمعوا دون أن تميز بعضهم

عن البعض الآخر ميزة، لم تكن ثمة علاقات معقدة قد جاءت إلى حيز الوجود، ولعدم وجود الطبقات يمكن القول بأن الأعمال لم تكن مختلفة ليصبح الإنتاج معقداً أو إجتماعياً. كما لم تكن مالكية لوسائل الإنتاج، إذ كانت الطبيعة الواسعة السخية هي المنتجة والإنسان هو المستهلك. كان الجميع يسرحون في قطعان حيواناتهم ويصطادون ما تصادفهم من فريسة ويقطعون ما لقوا في الغابات وضفاف الأنهار من ثمار، ويقفلون راجعين زرافات، ولأن عملهم الرئيس هو الصيد فقط، ولأن الغابة والطبيعة هي المصدر الوحيد للإنتاج والثروة وهي في متناول يد الجميع بل تفوق حاجة الناس، وعليه لا يمكن للطبقات أن تظهر للوجود، ولم تكن هناك مالكية، فلا سيد مالك غني ولا عبد مملوك فقير، وليس ثمة عنصر صالح وآخر طالح. كا أن الأشياء ليست مقصورة علىٰ أحد دون آخر، فلا معنى للسرقة والمشروع واللامشروع، وصاحب ومدّعي باطل، أي أن المجتمع كان بدون طبقات. كانت هذه (الكومونة) الأولىٰ. المساواة البدائية للناس تتجلى على المائدة الموفورة للطبيعة الكريمة. كان هذا هو المنزل الأول الذي عاش فيه الإنسان.

بعدها يدخل عهد التجمع، فيدخل مرحلة الزراعة

واقتصار مصادر الإنتاج وتعيين وسائل الإنتاج والملكية، ولأن لم تكن هناك ما يقابل المالكية والإرث الأبوي، ولا الأصل الأعياني، ولا من تبريرات دينية أو موازين حقوقية، إذ كانت القوة والقدرة العضلية وحدها تستطيع أن تعين حق التملك، فبظهور التملك أصبحت العبودية موجودة بشكل حتمي ووجدت الطبقات العليا والدنيا، فدخل الإنسان بشكل اجباري مرحلة المجتمع مع طبقة، وبعد ذلك أوجد هذا المجتمع مع الطبقة، علىٰ أساس ملكية الأرض في مرحلة الزراعة، أوجد الإقطاعية.

فبانت مرحلة الإقطاعية للوجود، وأخذت الإقطاعية بالنمو وفق الجبر الديالكتيكي وهي مهما نمت عملت على تربية أعدائها ومعارضيها ومنافيها ضدها، كما هو نمو كياني حيث بالقدر الذي ينمو أقوم بإعداد موتي داخل كياني هذا، فمثلاً بعد عامين اقترب خطوتين من الموت، وبقدر ما أنمو خلال نفس واحدة فإنما أقوم على نفس القدر بتحطيم ذاتي وإعداد عدوي. كذلك المجتمع الإقطاعي بقدر ما ينمو ويتسع كأية ظاهرة في هذا العالم «يقوّى على نفسه عدوه». وعلى أساس هذا الديالكتيك فإن التكامل، ووضع الطبقات وأحوالها، اشكال الإنتاج وطرقه وطبيعة العيش في ظل الإقطاع، يؤدي إلىٰ ظهور

عوامل تحمل اسم البرجوازية، التي ابتدعت طرق العيش بالأموال والتجارة والكسب والحركة والسوق، عيشاً مركباً مدنياً نشأت من صلب الإقطاعية ذاتها. انظر إلى قرية مترفة، أو قرية اجتمع فيها الأعيان مع بعض المالكين، توجد فيها حلقة مستديرة توفر ما تحتاجها من مستلزمات عيشها من المدينة أو من القرىٰ الأخرىٰ، تستهلك بضائعها وتأكل من عطائها وتكون مع بعضها مميزة في القرى، كان يوماً متجرها حميرها، إن تلك الحلقة المستديرة هي أبو البرجوازي الذي كان يملك دكاناً ونما شيئاً فشيئاً، ليفتتح في القرية دكاناً آخر، دكانين ثلاثة وأربعة وهكذا.

إن مالكي الدكاكين هؤلاء، هم من الأشخاص المتوسطين في القرية، يحصلون على صنعة بالتدريج، يرفعون مستوى الإستهلاك ونوع الإستهلاك ولكون صاحب الدكان يتعامل بالمال معاملة محضة، فإن ذاك الرجل من الأعيان (أو الشيخ) قد ارتفع إستهلاكه وثبت إنتاجه، وهو بهذه الحالة يمكن أن يكون مديناً لصاحب الدكان. «فواتير الدكان» تتراكم على بعضها على مر السنين وذلك ما يضعف الشيخ ويقوي صاحب الدكان. إلى أن لا يبقىٰ من الشيخ سوىٰ زوج شاربين، ويفر ذات ليلة ظلماء إلى المدينة بحثاً عن العمل، ويرثه صاحب

الدكان ليستخلفه علىٰ أبناء القرية .

إن البرجوازية تنخر الإقطاع من الداخل بهذه الصورة بالضبط ، فجاءت اللحظة التي سقط فيها الإقطاع الذي أنهكته المفاهيم الجوفاء لعوائلها ، من شرف وفضيلة ، سقط صريعاً أمام هجمة البرجوازي الشاب النشط القوي الذي ينكر بأن للفضيلة تلك معنى يذكر .

فتبدأ مرحلة البرجوازية ، مرحلة الحرفة والتجارة والعمل بالأموال ، مرحلة المبادلات الإقتصادية ، وتنمو البرجوازية في عملياتها هذه ، وتساعدها الصناعة في نموها . ومن الزواج غير الشرعي للعلم والمال ، يُقبِل وليد للدنيا وهو «الآلة» ، فيدخل العامل والكاسب الميدان ، وتشرع الطقة المتوسطة والمترفة البرجوازية بالنمو التدريجي وتتزايد ثرواتها وتتنوع . ثم تأتي الرأسمالية الصناعية إلىٰ الوجود ، التي هي عبارة عن تمركز الثروات بيد نفر من الناس أو بضعة شركات ، فتدغم مع بعضها أو تشكل كارتلاً ، وبعدها لا يبقى ذكر للمال بل يعول على الإعتبار والأسهم .

فتتقاطر الدكاكين التي يملكها العشرات من التجار وتشكل العشرات من القوافل السوقية ، لكل قافلة مائتي غرفة يقبع في كل غرفة تاجر له العديد من الكسبة خارج هذه الدكاكين

منهمكون بالتعامل ببضاعته وماله، فتؤدي بهم الأوضاع تدريجياً إلى حال يشبهون فيها القطيع الذي يتعرض لهجوم عدد من الذئاب أو السباع أو النمور، فتبتلع هذه الحيوانات الشرسة عدداً من فرائسها لتصبح أقوى وأضخم وتضحىٰ كروشها أكبر، أما البقية التي سلمت بجلدها فقد سقط حقها في أن تحصل علىٰ قوتها بالكسب والعمل الفردي والتجارة، واضطرت من شدة العوز والحاجة أن تعمل في أروقة الدوائر والمعامل والأمور المتفرقة، وهي بحالتها هذه قد وقعت بشكل أو بآخر أسيرة في شباك «الضخام والمتكرشين».

انظروا إلى المتجر الكبير في شارع ما، وتمعنوا ماذا عمل بأصحاب الدكاكين حوله؟ أن الرأسمالية في عصر الآلة تميل إلى إيجاد المركزية لنفسها لتستطيع أن تنقسم على رؤوس الآلاف من الأفراد أو حتى الأجزاء. هذا هو ما نلاحظ في مدينة معينة، حيث أن ثلاثة أو أربعة من الرأسماليين بدلاً من ألف تاجر، وبضعة متاجر كبيرة بدلاً من عشرة آلاف محل.

فعلى هذا الأساس من الرغبة في الإتحاد والمركزية بين المتاجر والشركات والمؤسسات الإقتصادية الكبيرة، تنشأ روابط مستترة أو ظاهرة للعيان، وتظهر الكارتلات والتكتلات

الإقتصادية فنلاحظ اليوم رأسمالية القرن التاسع عشر المفعمة بالتنافس قد تبدلت إلى رأسمالية القرن العشرين المساومة، ونتيجة لذلك فإن الكثير من المنظرين والمحللين والمفكرين وعلماء الإجتماع يرون في القرن التاسع عشر قرناً خالياً من المصداقية.

علىٰ أية حال، وصلت البرجوازية بهذا الشكل إلى الرأسمالية وبشكل أكبر إلى مرحلة الإمبريالية (أو الإستعمار الإقتصادي)، ليصبح مصير الإنتاج والإستهلاك العالمي بيد نفر معدود من البشر. لاحظنا بأن الجبر الطبيعي لنمو المجتمع على أساس التضاد الديالكتايكي الكامن في صلب المجتمع المؤلف من طبقات، يساق المجتمع البدائي غير الطبقي من مرحلة إلى مرحلة أخرىٰ لأجل العودة به إلى المرحلة المجردة من الطبقات، ولكن ليست بالصورة الهمجية هذه المرة بل بصورة أكثر تحضراً وتقدماً.

وعليه، فالتاريخ عبارة عن المجتمع الإنساني الذي يبدأ من المرحلة اللاطبقية الأولىٰ. وبواسطة الديالكتيكية التاريخية ينتقل المجتمع من هذا المنزل إلى ذلك بشكل جبري، إلىٰ أن ينتهي به المطاف في المنزل الأخير الذي لا مفر منه، وهناك تعد العدة لاستقبال القوافل المتقاطرة.

هذا هو التاريخ، فكيف تحرك إذن؟ علىٰ أساس الديالكتيك، نمو مرحلة بالصورة التي تعد هذه المرحلة النامية بالذات عدّوها وتربيه في داخلها لكي تصبح بعدئذ المرحلة الجديدة التي تلي سالفتها.

مثل هذا النمو كمثل نمو الأب والإبن في العائلة، فعلىٰ قدر ما يبلغ الأب من الكبر يضعف فيقوى الإبن ويثبت وجوده عندما يموت الأب. فعندما يصبح الإبن شاباً يكون أبوه عجوزاً طاعناً في السن، وبعده يوجه الإبن ضربة لقلب أبيه ليصرعه وينتهي. وعندما تبدأ المرحلة الثانية وعلىٰ قدر ما ينمو هذا الإبن فإن ابنه، الذي هو النقيض أو خلاف الفرض (antithesis)، ينمو في داخله بالشكل الذي كان هو ينمو في حياة أبيه. فالفرض task، الذي كان أبوه قد انهكه ونخره، والتركيب بين الإثنين synthesis عبارة عن هذا الإبن الذي صار بدوره أباً. فالشيخ الحاكم علىٰ كل صغيرة وكبيرة في القرية كان يربي صاحب الدكان إلىٰ أن اشتدت جوارحه فاسقط الشيخ وتسلم زمام أُمور القرية. أصبح ذا مال ومصانع. وكلما توسعت قدرته وأملاكه تربىٰ عماله ومستخدميه بين يديه بشكل أكثر وأضبط، وقس على ذلك. . .

على أساس هذا الديالكتيك، تتبادل المراحل التاريخية

المختلفة الأدوار بين بعضها والبعض الآخر، وتمرر الطرق الديالكتيكية قهراً قوافل المجتمع الإنساني في الطريق الجبري للتاريخ لتوصله أخيراً إلى المنزلة التي تختفي فيها الطبقات مرة أخرىٰ.

الظروف المحيطة تصنع الإنسان جبراً

نلاحظ أن المراحل التاريخية تؤدي إلى تبلور «النظام الإجتماعي» وإضفاء طابع خاص عليه علىٰ أساس القوانين المتأصلة في المجتمع بالشكل الذي لا يمكن لأحد التأثير عليه. أي أنها قوانين طبيعية وليست من وضع وأرادة الإنسان، يتعاقب مجيء هذه القوانين، ووفقه ينمو المجتمع إلىٰ أن يبلغ هذا النمو أشده فينفجر لتظهر مرحلة اخرى... فعلىٰ أساس أشكال العمل وأنواعه وأدواته وعوامل الإنتاج المستخدمة خلال القيام بذلك العمل، والمصادر التي يعتمد عليه العمل للإستمرار بالإنتاج، الضوابط والعلاقات الإقتصادية والإجتماعية والحقوقية الخاصة المتناسقة مع طبيعة ذلك العمل، كل هذه ستظهر للوجود لتكوّن «النظام الإجتماعي» وتبلوره لكي يؤدي هذا النظام بدوره إلى ظهور «المحيط الإجتماعي» و«المرحلة الإجتماعية» الخاصة. فمثلاً لو كانت أدوات العمل هي شبكة صيد وقفة و... ومصدر الإنتاج هو

البحر والنهر فسوف تتم تهيئة وإعداد علاقات ومؤسسات حقوقية إجتماعية، وبعدها نظام وشكل إجتماعي ثم محيط إجتماعي. أما لو كانت أدوات العمل هي المعاول والمحاريث والثيران والحمير. . . ومصدر الإنتاج هو الأرض ومياه الروافد والقنوات والبستان. . . نوع آخر. وعندما تكون أدوات العمل هي الآلة والأنظمة المرتبطة بها مثل الإدارية والعلاقات الطبقية، والحقوقية والإجتماعية، وبالمجموع فإن نظام وشكل المجتمع في هذا النوع يختلف عما ذكرناه تماماً.

ومن ناحية أخرى ندرك، وأكثر من أن ندرك، نرىٰ بأن الإنسان من صنع محيطه. وبمعنى أدق لا يدرك فوق الخصائص والمزيات الأخلاقية والروحية والفكرية والشكلية لعامل المقهىٰ والسائق والفلاح والراعي والمعلم والموظف الإداري والصحفي وعامل الأجور اليومية وعامل المصنع وصاحب المخزن والشرطي والمرأة، كما ليس ثمة أحد لا يعرف بأن اختلاف هذه الأنواع العديدة من الناس يعود إلى «اختلاف أعمالهم». إن الفرق بين القروي وساكن المدينة هو فرق من هذا القبيل. رأينا بأن مزارعاً عمل بالتهريب فأصبح ثرياً، وصار مزارع آخر سارقاً تمرّد في الجبل، وفضل مزارع آخر أن يصبح عاملاً في مصانع المعدات والمكائن الثقيلة في

مدينة كبيرة كطهران، يتضمن مثالنا أنواع من الأناس اختلفوا عما كانوا عليه ذي قبل. لا ينبغي القول: «من أي نوع عسىٰ أن يكون هذا الإنسان»؟ بل يجب أن يقال: «أي نوع نظام هذا؟» فالغيرة، وحب الجار، والتشبث بالأقارب، وإكرام الضيف، والإعتماد على العائلة والجيران والعشيرة... تعود إلى عصر الحياة القروية والمدن الصغيرة. عندما لم تتسنَّ للمدينة أن تنمو بعد، كان للجيران دور مهم في حياة العائلة: دور الشرطي، مؤجر، ممرض، مقهىٰ، مصرف الرهون، شورىٰ التحكيم، محكمة عائلية، وبعد كل هذا يأتي ذكر حق الجيران، وبعد هذا أيضاً يصبح حب واحترام الجار فضيلة أخلاقية وإنسانية. لقد كان كرم الضيافة فضيلة أخلاقية ينجز بحد ذاته أعمال المئات من المؤسسات الإجتماعية، فبوجود الطرق المعبدة اليوم استوجب وجود الهاتف، البرقية، وسائط النقل السريعة والمتعددة الأنواع، المصارف، الفنادق... لو عطلت سيارتك مثلاً وسط الطريق يمكن اصلاحها بظرف سويعات من الزمن، وإن لم تصلح فهناك وسائط نقل اخرىٰ بمتناول يدك، الحافلة والقطار، تصل بهما إلىٰ أين ما تقصد، وإن نفدت نقودك أو سرقت منك يمكنك أن تبعث ببرقية من أي مسافة شئت، وإن أراد منك موظف البرق والبريد أجرة

على ذلك تعطه صكاً، أينما تذهب تجد الفنادق والمطاعم والمقاهي. ولكن في العصر الذي كان ابن بطوطة يجوب الصحارى ويمر بالقبائل فكانت القرى موصدة أمامه فلن يجد سوى مسجداً وخربة يأوي إليها، لو حصل أن تمرض حماره، لغزوه السراق، فلا يمكنه أن يواصل سيره وكان يضل الطريق... لو لم تكن سنة الحياة تتضمن إكرام الضيف وإيواء الغريب لأصبح الفرد عاجزاً أن يحمل خطاه خارج مرابعه ودياره. إنها متطلبات العيش والظروف الإجتماعية التي أوحت إلى القبائل أن يصبح رجالها غيارىٰ وأصحاب مضايف إذ: «لو مر غريب أو مسافر بأرضنا أو خيامنا أو قراناً ولم يدخل عندنا ويأكل من زادنا لأهاننا وإن حياته لفي خطر» كان هذا موضوع افتخار قبائل العرب، فكانوا يشعلون ناراً كبيرة في ظلمة الليل ليهتدي إليهم غريب أو من ضل طريقه أو ابن السبيل ولم يبت ليلته لأنه لا يعرف عنوان «أهل الكرم» الذين يدعون المارين بالصحراء أن يمضوا عندهم ضيوفاً.

وعليه فإن الإنسان يكسب خصوصياته من نظامه الإجتماعي، فكما لاحظنا فإن المجتمع يظهر للوجود وفق قانون الحركة والتحوّل الجبري في التاريخ، فالإنسان يصنعه المحيط اجباراً ويغيره التحوّل الإجتماعي بشكل اجباري أيضاً.

عوامل ظهور العلمية

للأسف ليست ثمة متسع من الوقت أن أخوض في الموضوع أكثر، ولعل من الأفضل أن أعرض علىٰ مسامعكم ملاحظة كان أحد الطلبة قد انتقدني فيها ولعدة مرات. أنا أعتقد بأن الذين يوجهون إليَّ النقد هم من الطلبة ذوي القابليات الكبيرة على الفهم والإستيعاب، إذ قال لي بأنك عندما تقوم بتدريس فلسفة هيغل فتبدو فيه مدافعاً حقيقياً عن الفلسفة المثالية التي جاء بها هيغل، وعندما تشرح الجبر التاريخي والـ(Determinism) للقرن التاسع عشر وأصالة الإقتصاد والتأثير السببي لأدوات العمل وشكل المحيط وتأثيره علىٰ الإنسان، والفرضية التي تذهب أن الإنسان هو عبارة عن المجموع الجبري للقوىٰ المحيطة به، وإن أي فرد هو ثمرة محيطه لا التشكيلة التي ابتدعها هو لنفسه، فعندما تدرس هذا المذهب اجدك من رواده ومؤيديه، وحتىٰ عندما تتحدث عن مبدأ (نيتشه)[1] الذي يؤمن بسقوط كل القيم وكل سنن الحياة وكل

---

(١) نيتشه (فردريش) ـ Nietzsche (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م): فيلسوف الماني، أخذ بمذهب التطوّر وقال إنّ الحياة ليست إلاَّ تنازع البقاء وبقاء الأصلح، وإنَّ «الإنسان الأعلى» هدف يجب الوصول إليه كان من أبرز مؤسسي العرقيّة الجرمانية. خلاصة مذهبه بما يدعى «إرادة القوة». من مؤلفاته: المسافر وظله، «مدائح ديونيزوس»، «نشأة المأساة وروح الموسيقى»، «هكذا تكلم زرادشت»، وأهمها كتاب «إرادة القوة». «الناشر»

الأسس الإجتماعية والتاريخية والأخلاقية والمعنوية، أراكَ متحمساً له راسخ الإيمان بما قال، وعندما تدرّسنا الأصول والأديان والمذاهب من (بوذا) و(لاوتسو) و(كونفشيوس)(١) كأنك معتنقاً إياها جميعاً، في حين تعزف عن كل هذه الأديان. واجدك ورعاً متمسكاً بالأحكام عندما تحدثنا عن الدين الإسلامي. ما خطبك؟ ماذا يعني كل هذا التناقض؟ أخبرنا إلى أي مذهب تنتمي؟ وعلى أي من الأسس الفلسفية التي تتحدث عنها يصب تفكيرك؟

أنا أُريد الآن أن أُبين لكم المذهب الذي اعتنقه، من حيث نظرة الإنسان للعالم، للتاريخ، للحياة ولكل شيء. على الرغم من درايتي بأن لا يتبعني فيه أحد ولا يتخذني أي منكم خليلاً (ضحك الحضور)، ولكن ادعائي للنبوة لا يكلفني مالاً كثيراً. خاصة في عصرنا هذا، إذا تعد النبوة عملاً أسهل من غيره،

---

(١) كونفشيوس (كونغ كيوتسوتشونغ ـ ني، المعروف بكونغ فو ـ تسو أو كونغ ـ تسو) ولد عام ٥٥١ ق.م في شانغ ـ بينغ، في الإقليم الذي يعرف حالياً باسم سو ـ تشويه (شان ـ تونغ)، وتوفي فيه عام ٤٧٩ ق.م. وكونفشيوس ـ Confucius هو الترجمة اللاتينية لمجموع الأحرف الصينية كونغ فو ـ تسو التي تعني المعلم المبجل كونغ. فيلسوف صيني، صاحب المذهب الفلسفي الذي عُرِفا باسم «الكونفوشيوسية» كان من أصحاب الآراء المحافظة التي تدعوا لحياة عائلية واجتماعية مثالية. من آثاره: «كتب القصائد»، «كتاب الوثائق القانوني»، «كتاب التحولات»، «مذكرات حول الطقوس»، «حوليات الربيع والخريف». «الناشر»

ولمجتمعنا ميزة أخص هو تلقفه له بسرعة[1].

بداية ظهور العلمية أو المذهب العلمي

ظهرت طبقة المتعلمين وفق المنطق والعلم في القرن السابع عشر واستمرت حتىٰ القرن التاسع عشر الذي نما فيه العلم نمواً كبيراً، إذ أن علماء الكيمياء والأحياء يتوصلون يومياً إلى إكتشافات جديدة، في حين يعلن الفيزيائيون عن توصلهم لمعجزات جديدة كلّ حين، وشملت هذه النهضة العلمية فروع العلوم الإنسانية والفلسفية وحتىٰ الرؤىٰ الدينية والأدبية والفنية، وكذلك قوانين معرفة الطبيعة، وبتعبير أصولي أدق ما تعتمد عليه الطبيعة في سيرها وتكاملها، طبيعة النبات والحيوان وطبيعة المادة، الأصول الواضحة والتي تتجلى مظاهرها يومياً لتكشف حقيقتها ووضوحها، ومن ثم حياة وقدرة الإنسان وتسلطه على الطبيعة وذلك لأجل اعلاء شأن هذه الأصول. والنجاح الذي حققه علماء الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا رسخ

---

(١) إن هذا الكلام الساخر قيل من قبل بعضهم، وهو اتهام لحقني أخيراً وبصورة جدية، بعد أن أصبحت اتهاماتهم السابقة قديمة وسدىً ولم تؤدِ غرضهم، فبالغوا فيها، فحدا بهم أن يخلصوا إلى نتيجة منطقية ـ بنظرهم ـ بعد قراءتهم لكتابي (معرفة الإسلام) الذي ذكرت فيه بأن جميع الأنبياء قد بدأوا دعوتهم في الصحراء، وكوني انتمي إلى قرية واقعة في صحراء (كوير) الإيرانية فإنني أدّعي النبوة!.

الإيمان بهذه العلوم بشكل أدّى للتعصب لها. وبلغ هذا التعصب ذروته في القرن التاسع عشر علىٰ الأخص، مما حدا بـ(برنار)[١] أن يقول: «إذا لم يتسنّ لي أن أرىٰ الروح أو الله تحت مباضع الجراحة فهذا يعني أنهما غير موجودين». هذه الجملة تدعم أصالة العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر وإيمان العلماء بـ(المذهب الطبيعي) Naturalism، وهو مذهب علمي مبني علىٰ أصالة الطبيعة، فأصبح لهذا المذهب رواد ومؤيدون.

وظهر مذهب آخر مبني علىٰ العلم والعلمية وهو (الدارونية) التي تؤمن بأصل النشوء والإرتقاء والصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح، فإن ما جاء به دارون[٢] استند فيه علىٰ تحليل تطور أنواع الحيوانات والنباتات، فمثلاً كيف يتطور حيوان الأميبا ذو الخلية الواحدة إلىٰ كائن حي ذي عدة خلايا، وكيف تغيرت أنواع الحيوانات التي كانت تعيش في الماء

---

(١) برنار (كلود) ـ Bernard (١٨١٣ ـ ١٨٧٨م): عالم وفيلسوف وطبيب فرنسي. من مؤلفاته: «مدخل إلى دراسة الطب التجريبي عام ١٨٦٥»، ظاهرات الحياة المشتركة للحيوان والنبات عام ١٨٧٨م»، وبعد وفاته نشرت له الحكومة الفرنسية عدة مؤلفات منها: خواطر (١٩٣٨) والدفتر الأحمر (١٩٤٢). «الناشر»

(٢) لو افترضنا صحة مذهب دارون، فإن هذه الفرضية تنحصر بأنواع الكائنات الحية.

فأصبحت متكيّفة أن تعيش على اليابسة، مراحل نشوء العظام في أنواع من الحيوانات، نشوء الثدي، تطور الحيوان إلى فرد ثم إلى إنسان، فالتكامل الفسيولوجي للمخلوقات يتم بتطويرها من نوع لنوع أكمل على أساس «الصراع من أجل البقاء والتكيّف للعيش في ظروف المحيط» الذي جاء به (تشارلز دارون)[١].

والعوامل التالية أوجبت ظهور العلماينة في القرون الأخير:

١ ـ الإنهيار الذي أصاب الكنيسة ورؤيتها الجامدة للأمور الحياتية، وإنحطاط روح القرون الوسطى جعل هذا المذهب يكتسب معنويات بشكل أوحى إليه الغرور وذلك لكونه تخلص تواً من سجن (السكولاستيه).

٢ ـ الإكتشافات والإختراعات التي أذهلت العقول والتي جاءت في قرون تحررها من المفاهيم البالية وتطلعها لحضارة العالم المتقدمة حيث غيرت شكل حياة الإنسان.

٣ ـ الحالة الجديدة وغير الناضجة للعلم. فعلىٰ الرغم من

---

(١) دارون (تشالز) Darwin (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م): عالم طبيعة انكليزي، صاحب نظرية التطوّر في الأجناس الحيّة. حيث كان يرى أن ذلك نتيجة «إختيار طبيعي» لصالح الأجناس الأكثر أهليّة للبقاء. «الناشر»

النجاح الذي توصل إليه لم يصل إلى مرحلة الكمال بعد ليمكنه من أن يكون متواضعاً إزاء الأسرار اللامتناهية للطبيعة، فكانت هذه الحالة على قدر لم يكن يعلم أن باستطاعة هذا المذهب إدراك عظمة وكثرة المجهولات اللانهائية(١).

لقد قال الفرنسيون في القرن التاسع عشر عن (كلود برنار): «إنه يعلم ما في داخل الإنسان كما يعلم ما في جيبه»، وفي منتصف القرن العشرين بدأ يتضح لعلماء الفيزياء، النفس، الطبيعة، الإجتماع، التاريخ وكل فروع العلم التي تخص معرفة الإنسان، بدأ يتضح لأولئك العلماء تطور العلوم وأضحت المجاهيل اللامتناهية في هذا الواقع الذي نطلق عليه (إنسان) تكشف عن سرائرها والظلمات المحيطة بها إذ وقعت تحت الأضواء المستمرة للبحث عن معرفة الإنسان، وسمى

---

(١) على حد قول غورفيج «كلما ارتفع مستوىٰ العلم ازداد تواضعه». وعلى نفس القدر الذي يحل فيه المتعلم العادي للفيزياء والكيمياء والأحياء كل قضايا الطبيعة بصورة سهلة واعتيادية ولديه جواب لأي سؤال تحت ابطه، فإن مثل انشتاين وماكس بلانك وكارل، الذين هم أرباب العلوم الحديثة، يظلون في حيرة من أمرهم، ويطبقون السكوت، وتبدو على وجوههم سنحات اليأس، عندما يأتي ذكر شيء لا يفقهونه، فيجيبون بنبرة تطغى فيها العبرة مترددين بين الشك واليقين قائلين: «من المحتمل، يقال، في الوقت الحاضر من وجهة نظر واحدة. . .»، وكان قد سبقهم في ذلك العالم الطبيب ابن سينا.

الكسي كاريل[١] (الحائز على جائزة نوبل في فسلجة الإنسان) سمى الإنسان بـ(المجهول) وأقرّ بأن العلوم التي اجتاحت الأرض لم تتمكن أن تخطو خطوة واحدة داخل نفس الإنسان. لقد تحدث فلاسفة التاريخ في القرن التاسع عشر عن حقيقة التاريخ بشكل وكأنه لم يكن هناك أي مجهول، وإن كل شيء تم حله بطريقة علمية قاطعة وبالإستعانة بالقوانين الرياضية الثابتة.

لقد اكتشف علم الإجتماع (١٩٨) قانوناً في المجتمع، إلاّ أن غورفيتش[٢] يقول اليوم بأن علم الإجتماع الجديد أثبت بطلان كل هذه القوانين[٣].

وقد وصل مذهب العلمانية الذي يعتنق الطبيعة وسيرها التكاملي، وخاصة بعد إعلان (دارون) لنظريته المشهورة، وصل إلىٰ أوج قدرته وسيادته المطلقة بشكل أصبح مفهوم

---

(١) كاريل (الكسي) Carrel (١٨٧٣ ـ ١٩٤٤م): جراح وفيزيولوجي فرنسي، اكتشف زراعة الأنسجة، حاز على جائزة نوبل عام ١٩١٢، له كتاب: الإنسان ذلك المجهول «الناشر»

(٢) غورفيتش (جورج) ـ (١٨٩٤ ـ ١٩٦٥م). فيلسوف وسوسيولوجي فرنسي، روسي المنشأ من أنصار الوضعية في علم الإجتماع، دعا مذهبه بـ«التجريبية الديالكتيكية». «الناشر»

(٣) كلام شريعتي هنا يعود للنصف الثاني من ستينات القرن الماضي. «الناشر»

التطور هو السائد، حيث عم هذا التطور بقية العلوم الإنسانية والمذاهب والحضارات والمجتمع وحتى الآداب.

أما العالم الإجتماعي (سبنسر)[١] فقد كان يرى نفس الرأي. وما المدارس الأدبية مثل الكلاسيكية أو الرومانسية إلاّ صورة عن (أنواع المخلوقات) التي تتطور وفق أصل الصراع من أجل البقاء وإختيار الأصلح لدارون، فتتبدل من قالب إلى قالب آخر وفق ما ذهب إليه (برونتير). كما كتب (دافيد هيوم)[٢] التاريخ الطبيعي للدين. أما العلماء (دوبنتون Daubenton)، (سومرينغ Sommering) و(بلومن باخ Blumenbach)فقد وضعوا أُسس أصول علم الطبيعيات والفسلجة، فذهبوا إلى أن الإنسان ليس إلاّ جسم حيواني حي يتمكن علم الطبيعيات ببساطة من تحليله وتعليله بصورة علمية ومنطقية.

---

(١) سنبسر (هربرت) ـ Spencer (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م): فيلسوف وعالم إجتماع انكليزي. صاحب مذهب قائم على التطوّر الطبيعي، يرى فيه وحدة للتمايز والتكامل، أرسى أُسس «المدرسة العضوانية» في علم الإجتماع. أخذ بمذهب النفعية في الأخلاق، وبالنزعة الليبرالية في السياسة. «الناشر»

(٢) هيوم (دافيد) ـ Hume (١٧١١ ـ ١٧٧٦م) فيلسوف ومؤرخ واقتصادي انكليزي. صاغ المبادىء الأساسية لمذهب الشكيّة، وأنكر مفاهيم العليّة والجوهر، وطور نظرية تداعي المعاني (الأفكار). أخذ بالنفعية في الأخلاق، وبنظرية القيمة ـ العمل في الإقتصاد. «الناشر»

أثر العلمية في إيجاد المادية

بقي غرور العلم في القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، وفي عام ١٩٠٠ وصل إلى ذروته، وهو العام الذي أطلق عليه (عام البرجوازية) إذ سمّي بـ douceurde vivre أي (حلاوة العيش). لماذا؟ لأن ذروة انتصار البشرية بدأت بالظهور، ووصل العلم إلىٰ غاية قدرته بتقديمه الكثير من الإختراعات، وعاشت البرجوازية علىٰ قدر بالغ من الترف. وعليه فما من شيء يشغل بالهم سوى حلاوة العيش ونعومته، هذه النعومة التي أصبحت اليوم غماً وشؤماً، حيث حلت المرارة محل الحلاوة، ودبّ العصيان والإضطراب، وأضحت كل هذه الأمور من شواخص القرن العشرين. ووصلت العلمية إلى حد آمن عنده (سبنسر) و(برونتير) بأن العلوم الإنسانية ـ التي تحكي عن معنىٰ وروح وفكر الإنسان ـ مثل علم الإجتماع، التاريخ، الحقوق، الثقافة والحضارة الإنسانية، يمكن أن تبين وفق أصول تطور الأنواع في سلسلة دارون التكاملية.

والأجمل من هذا (برونتير) الذي قال: «لنحلل المدارس الأدبية والشعرية علىٰ أساس تطور الأنواع مثلما عمل دارون. لنحلل مثلاً نوع الكلاسيكية علىٰ أنها من الكائنات الحية فيتطور

هذا النوع إلىٰ الرومانسية. فالرومانسية مثلاً عبارة عن إنسان نتج عن (الأندرتال)، ومن الرومانسية ظهر نوع جديد من الشعر هو الشعر الحر، والشعر الأبيض. ثم تظهر الطبيعية Naturalism والحقيقة Realism و. . . حتى الأحاسيس الفنية والشعرية يجب أن تبين وفق الإطار الذي رسمه دارون، وليست هي بموضوع مستقل وخاص يحتاج إلى بحث وأدلة.

أصالة الإنسان أم أصالة التاريخ

وبناءَ علىٰ ذلك، فكل ما موجود في المذاهب يؤول إلىٰ نوعين من الرؤية للإنسان والتاريخ. الأول أن العالم مبني على أهل العلمانية (العلمية) وأصالة العلوم الطبيعية التي تؤمن بأن الوجود الإنساني لا يتميز بنسج خاص به، بل يشبه النباتات والحيوانات، وهو تابع للقوانين الجبرية للطبيعية، وإن الإنسان قد أعد وصنع بواسطة القوانين الجبرية للمجتمع والطبيعة. وإن المادية والجبر التاريخي مذهبان يدعيان بأن الإنسان بريء من التدخل في تقرير مصيره، أو أن يعوّل على إرادته، فهناك تأثيرات على شعوره وتعقله تجعله بهذا الشكل. وذلك لأن في الطبيعة لا يوجد أمر استثنائي يدعى الإرادة الإنسانية أو معرفة الذات الإنسانية.

وثمة نوع آخر من العلماء مثل سارتر، يعطي الأصالة للإنسان، وغير سارتر أو أكثر منه كالعلماء والمفكرين الليبراليين في القرن الثامن عشر، وكذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين كالإنسانيين ـ Humanists ـ الذين يؤمنون بأصالة إرادة الإنسان. ومن المفكرين المشهورين (ماكس ويبر) الذي يرىٰ العقيدة والفكر هما علّة التحولات الإجتماعية علىٰ خلاف ما ذهب إليه (ماركس).

لقد بيّن (ماكس ويبر) علم الإجتماع من وجهة النظر الدينية للكاثوليك والتخلف الصناعي من ناحية، والرأسمالية والبروتستانتية والتقدم الصناعي ـ الإقتصادي في الجغرافية البشرية للغرب من ناحية أُخرى، بالشكل التالي: (إن الألمان والأمريكان بروتستانيون. أما ايطاليا واسبانيا فهم كاثوليك. والبروتستانتية هي أغلبية متطورة من الناحية المادية أكثر من غيرها).

وهذا يبين بأن الكاثوليكية التي تؤمن بالزهد والإعراض عن الدنيا والعمل من أجل الآخرة، والبروتستانتية التي تخالف هذه النظرة وتتعامل مع الأمور تعاملاً منطقياً عقلياً وتؤمن بأصالة الحياة في هذا العالم، هما العلّة في تقرير المصير المادي والإجتماعي والإقتصادي للمجتمع.

إن الإنسان كيفما وجد، وأينما يعمل، وأينما وضعته الظروف الإجتماعية، ومهما يكن له من مستقبل. . . كلها من صنع يديه وحسب إرادته، ولا يمكن لأي فرد أن يبرئه جبر التاريخ أو جبر المحيط والمجتمع أو العوامل الوراثية. ويرىٰ سارتر حتى من فقد بصره أو كان كسيحاً منذ ولادته بأنه مسؤول عن تخلّفه وضعفه، ويعزّز ما قال بأنه قد يوجد من بين هؤلاء الأشخاص شخصيات مرموقة وأبطال يتسنى لأولئك أن يقتدوا بهم.

المذهب التاريخي لعلماء الإجتماع

والمذهب الآخر الذي أودّ طرحه هو المذهب التاريخي لعلماء الإجتماع Socialigism، أي سوسيولوجية أن الفرد لا يعلم شيئاً. الفرد عبارة عن وعاء خالٍ تملأه روح المجتمع. وعليه فإن ما يملكه أي فرد كان المجتمع قد أملأه عليه إياه، فلو كان مجرماً وضيعاً قبيحاً، فالمجتمع هو الذي صب وضاعته وقبحه في ذاته. ولو كان كبير الشأن يخدم بني قومه ويفهم، فهذه من الخطوط التي رسمها المجتمع على الصفحة البيضاء لهذا الشخص فقوّم فطرته وفق ذلك. وعليه فإن الفرد ليس فقط غير صالح ولا طالح، بل أنه غير مسؤول عن ذلك، فالمجتمع هو الذي بني منه شخصاً بهذا الشكل، فالمجتمع علّة

كل أعمال وحالات أفراده. ويتبين بأن هذا الطرح يدعم أصالة المجتمع وكون الفرد فرعاً منه، ولا يتمكن من أن يبني المجتمع، بل لا يمكن أن يعمل أي شيء، وأنه في حد ذاته كان لا شيء، ونما على قدر لم يثبت للناس موقفه، فتراه يتأرجح بين هذه وتلك، فتارة نرى مجرماً خطيراً يعاقب على جرمه الفظيع بعقوبة الإعدام، قد تتألم قلوب البعض لمنظر الإعدام، ولكن البعض الأخر، وأغلبهم أكثر تعلماً وثقافة من أولئك، يصف المجرم بأنه براء من فعلته وإنما المحيط هو الذي دفع به ليرتكب جريمته. مثل هؤلاء لا يرون الجريمة ظاهرة فردية، وهم يرجعون سببها إلى مقتضيات المجتمع التي أدّت إلى إبراز مثل تلك الجريمة، تلك المقتضيات تهيىء تربية أفراد من نوع خاص ليقوموا بارتكاب جريمة خاصة يوماً ما. إن مثل هؤلاء المفكرين يؤمنون بأصالة المجتمع ولا يرون في الفرد سوىٰ صفحة بيضاء يخط فيها المجتمع خطوطاً أمثلها عليه مقتضياته.

لقد طرح في القرن التاسع عشر مراراً موضوع «هل أن الأصالة قائمة في المجتمع أم في الفرد؟». وقد نقض علم الإجتماع الجديد هذا الموضوع جملة وتفصيلاً، واحتل لنفسه المكان الذي كان كل من علم الإجتماع وعلم النفس يشغلانه،

علماً بأن علم الإجتماع لا يقر بحق علم النفس قيد أنملة.

علم النفس وعلم الإجتماع

لقد سلّم علم النفس كل مجالات بحوثه الخاصة به حول الفرد إلى علم الإجتماع، واتخذ هو لنفسه دراسة «الذاكرة»، «التداعي» و«الهيجان» في الفرد، الذي لا يمكن أن يكتسبه من المجتمع، أما علم الإجتماع فإنه يرىٰ حتى هذه الحالات الثلاث ليست خاصة بعلم النفس، وإنما هي من صنع المجتمع.

ثمة بعض علماء النفس يرون في الوراثة بأنها العامل في بناء كيفية الفرد ويستندون إلى الوراثة بكل تفاصيلها لدعم ما ذهبوا إليه، ويقفون بها ازاء تجاوزات علماء الإجتماع. وعليه فلو كنتُ حسناً أم سيئاً، جميلاً أم قبيحاً، أو كان لون جلدي أبيض أم أسود، فأنا لست مسؤولاً عن ذلك، لست مسؤولاً عن الروح والذات والأخلاق والإنسانية الكامنة فيّ سواء كنت سيئاً أو حسناً، إنها تعود إلى عوامل وألوان انتقلت إليَّ عن طريق الوراثة دون ارادتي، وللإنسان وزن ولون وحجم وشكل وحواس ومزاج معين وغير قابل للتغيير، فمن الناحية المعنوية والأخلاقية والفكرية فإن للفرد «طبيعة بشرية» معينة تبني منه النوع الذي يصبح عليه الفرد، فالطبيعة أو الوجدان الإنساني

(Consciace nature Humaine)، التي كان الراديكاليون في القرن التاسع عشر يستندون إليها وتنكرها الوجودية، عبارة عن مجموعة من الصفات والخصائص الثابتة والمشتركة في كيان الإنسان التي تعد تقديراً ذاتياً في بنائه ذلك التقدير الذي لا يمكن أن تغيّره الإرادة، حيث أن تلك الإرادة أو الرغبة وتلك الطبيعة هي نتاج نوعي له. وعليه فالفرد كائن مخلوق ومشخص يكتسب ماهيته عن طريق الوراثة.

ماهية الإنسان في علم النفس وتطابقها مع علم الإجتماع

أنا من بنى كياني، دمي وعرقي والوراثة، : (العنصرية، الفاشية). أنا من بنى وجداني الباطني، وأنشأت عقدي النفسية والقوىٰ الغريزية بتأثير من العوامل التربوية والمحيطية والوراثية: (السيكلوجية). أنا من خلقني المجتمع: (السوسيولوجية). أنا من هيأ كياني وأعد الأوضاع والأحوال الجغرافية للمحيط الذي أعيشه: (الطبيعة، الجغرافية). أنا من أكسب كياني وعيي وأُصولي عند انتهاء التاريخ بعد المرور بكل الأحداث الماضية، إذ تم قبل ذلك التصور الفردي والإنساني لتاريخي أنا بالذات، : (التاريخية أو الهستورية). أنا نبات كسبت ثقافتي من الأرض المعطاء: (الطبيعية، شبنجلر). أنا نتاج من شكل عملي ووسائله والحالة الإقتصادثة التي أعيش

فيها، وقد بني كياني في ظل دور الإنتاج والظروف الإقتصادية: (الإقتصادية أو الاكونومية، جبر العمل، أصالة وسائل العمل، وبالمجموع الماركسية). و. . .أخيراً أنا من خلقني الله وفق مشيئته: (القضاء والقدر).

نلاحظ بأن كل الطرق مسدودة بوجه الإنسان. كلها تحكي عن «نقص الإنسان». كل منها يحكي عن العبودية الذاتية وعجز الإنسان الفطري والمطلق. كل هذه المذاهب المختلفة وحتىٰ المتضادة تسعىٰ في طريق التآمر لتحقير وسقوط وزوال إنسانية الإنسان، «ذات الإنسان»، «أصالة الإنسان المتعالية»، ووضعوا يداً بيد وباسم الله، المادة، الكفر والدين، الفلسفة والعلم، علم الإجتماع والتاريخ، ليصبّوا مساعيهم لترسيخ عقيدة وإيمان مشترك في الإنسان من أجل زعزعة عقيدة وإيمان الإنسان بذاته، لكي يستبدلوا فيه رفضه وحماسه وافتخاره المتعالي علىٰ أنه أشرف المخلوقات، محط حب الله ورضاه، سيد الكائنات والبسيطة والزمان وقائدها وزعيمها، يستبدلوا كل هذا بأرجوزة حماسية ساخرة وهي: «أنا من كان رستم[1] بطلاً». وفي

(١) رستم دستان: بطل اسطوري فارسي، من أشهر أبطال «الشاهنامه» للفردوسي. إبن زال وأبو سهراب، فارس مغامر. تغنىَّ الفردوسي ببطولاته ومغامراته، وزيّن الفنانون الفرس مخطوطاتهم بمشاهد أخباره. «الناشر»

ارجوزة مثل هذه ماذا يختلف الأمر بالنسبة لي إن كان رستم إلٰهاً أو تاريخاً أو جغرافية أو مجتمع أو وسيلة من وسائل الإنتاج أو غريزة جنسية أو البنية التحتية للإقتصاد؟ فعندما نسمع مكبرة الصوت أو جهاز المذياع الذي يبث المواعظ والحكم والإرشاد، أو برنامجاً ساخراً لفلان من الفنانين، أو تحليلاً سياسياً لأحدهم، أن مقطوعة من سيمفونية رقم ٥ لبتهوفن، أو أغنية (هجرني الحبيب. . .) أو . . . هل أن كل هذا يؤدي إلى فقدان «القيم»؟ هل تختلف الأمور؟ لسوف تقول بأن ثمة درجات وأنواع للقيم عندما ننظر لجبر القيم. من الطبيعي ليست لصاروخ وللطائرة الورقية نفس القيمة، أو أن نقول أحدهما صنع الآخر. فهنا تأتي الشكوك ويحيط الغموض بتوضيح مفهوم ومعنىٰ «القيمة». فبلا شك أن يكون للمعبد والمطبخ، للذهب والصخر، للصاروخ ولطائرة ورقية، ورد المريم وورد لسان الثور، لكل ما ذكرنا قيم مختلفة، ولكن يمكن تعيين القيمة حسب الفائدة التي يحصل عليها الإنسان، أو حسب الميزة الموجودة في ذات الشيء، والذي يعود بالتالي إلىٰ الإنسان الذي يمنح قيمة لكل ما ذكرنا، فهو الذي يقوم بتعيين الأشياء، الطبيعي أو الصناعي، إذ لا يملك

أي شيء من الأشياء بحد ذاته قيمة إضافية، لأن القيم نسبية واعتبارية متغيّرة.

إرادة الإنسان تبني محيط حياته

حديثنا هنا يكون عن القيم الإنسانية، أي ما هو ملاك القيم وعلام يعتمد في تعيينه لدىٰ الإنسان؟ إن الجواب ينحصر في كلمة واحدة: الإرادة فقط! لا تفكير ولا إبداع، علىٰ الرغم من أن هاتين الخصلتين بدون إرادة، لعملية معقدة ومتشعبة.

لكن ثمة أساس يتعلق بأصل أو أصول أية عقيدة وأي مذهب، وهو أن كل الكائنات الحيّة، مثل الحيوان الذي يميل إلىٰ التكيّف مع طبيعته والتطابق معها (adabtation)، وحالة التطابق هذه تعطي للكائنات التكامل، فلو لم يتمكن حيوان ما أن يتكيّف مع المحيط فمصيره الفناء لا محال. وأن الحيوانات التي انقرضت، ما هي إلاّ لكون المحيط قد تغيّر ولم تتمكن من تكييف نفسها مع المحيط والظرف الجديد.

ولكن الإنسان على العكس من بقية المخلوقات، ورسالته هي أن يقوم بتكييف المحيط حسب حاجته ومثاله المطلوب، إذن فالإنسان هو إمكانية نسبية. فمن تسنّىٰ له أن يسير علىٰ

قدميه وتعرّت جبهته وراحة يديه من الشعر هو ليس إنساناً، بل حيواناً ناطقاً. وعلى حد تعريف أرسطو «حيوان ناطق» لوصف صحيح، كل الحيوانات ناطقة ولكن كلها ليست بالإنسان. فالإنسان يمتلك المقدرة على التكيّف مع تغيير المحيط بالمثل العليا التي يرجوها، وعلى قدر ما يتكيّف مع المحيط وبنائه، فهو مخلوق من صلب الطبيعة، نبات وحيوان. فما النبات والحيوان إذن؟ مخلوقات بنتها الطبيعة من حيث لا تعلم، وصارت أُلعوبة بيد الطبيعة. أما الإنسان فهو قوة في الطبيعة، وعلىٰ الرغم من كونه وليد الطبيعة نفسها يمكنه لو شاء أن يسلك درباً خلاف ما رسمته الطبيعة له، فالإنسان كائن مثل بروميثوس، فمن هو بروميثوس يا ترىٰ؟

نيران بروميثوس

ورد في قصص الميثولوجية اليونانية، أساطير الروم، وفي قصة خلق الإنسان في التوراة وفي القرآن علىٰ أنه من «بني آدم». وهي تدل علىٰ أن كل الحقائق تعود إلىٰ منشأ واحد ولكن بعدها تغير بهذا الشكل الذي بيّنه القرآن بصورة أوضح.

في الميثولوجيا اليونانية أن بروميثوس هو أحد الآلهة التي

تتطابق صفاتها مع نوع الإنسان، إن بروميثوس هو «التنبوء» والمعرفة المسبقة، أحد آلهة اليونان. وهذا الإسم في حقيقته يدل على صفة، وهي قابلية إنسانية. وقد أصبحت هذه الصفة دالة على رمز، فكرة، أخذت شخصية ما لحالها وخرجت بها على شكل إلٰه، في عالم الآلهة؛ ومع الآلهة الأخرىٰ وجنباً إلى جنب مع الإلٰه (زيوس)، وهو الإلٰه الأكبر الحاكم علىٰ الطبيعة أو هو رمز العالم.

فالإنسان علىٰ وجه البسيطة لا يمتلك نوراً ولا ناراً، ولا حرارة وإنما يعيش حياة مظلمة، يمضىٰ ليله ونهاره في الظلام وكل فصوله شتاء، يمضي حاله هذه في سجن اسمه الأرض. فبروميثوس محب للإنسان، وهو المظهر الإلهي للإنسان مقابل (زيوس) الإلهي. أن بروميثوس الذي كان يعد عنصراً سماوياً لدىٰ الآلهة وقد حصل أن نزل إلى الأرض في ليلة كان (زيوس) وبقية الآلهة نائمين، ليهب للإنسان النار، فيغضب (زيوس) وبقية الآلهة، فيحط بروميثوس في جبال القفقاس حيث كان يتصور اليونانيون بأنها خالية من السكان ولم يعش فيها غير بعض الحيوانات المفترسة، ويشد وثاق بروميثوس، فيأتي نسر ضارٍ لينقر جسده. في جبال القفقاس (رمز الانعزال وعذاب الإنسان) وبواسطة السلاسل (رمز القيود

والعبودية وعذاب الإنسان) يواجه بروميثوس أيّما مشكلة، ليته كان وحيداً مع النسر، ينهش كبده بمنقاره المعقوف ويظل ينهش كبده الدامي حتىٰ ينتهي منه، بعد ذلك ينتهي هذا الكبد عن بروميثوس مرة أخرىٰ ويبدأ النسر بأكل الكبد، وتبدأ العملية مرة ثالثة. . . ومرات عديدة يفنى ذلك النسر الجارح كبد بروميثوس، ثم يظهر للوجود مراراً. . . وهذا يعني التعذيب الأبدي اللانهائي للإنسان. ماذا يعني هذا الرمز؟ إنه يعني بأن (زيوس) هو رمز القوانين المادية والطبيعية. أن ربّ الآلهة في الميثولوجيا اليونانية هو غير الإله الذي نؤمن به خالق السماوات والأرض، الشعور، الأرض والسماء والوجود كله مظهر أو رمز للطبيعة. إنه ليس الخالق، وإنما الإلٰه، أو ملك الطبيعة.

بروميثوس كان رمزاً للتنبوء والتوقع، التعقل والإرادة البشرية. كان رمزاً لمعرفة الذات والنظر لقدرة الإنسان الخارقة للطبيعة التي تفتقر إليها الطبيعة والأرض نفسها، فمحصلة الأمر أن الإنسان مخلوق يتمكن من بناء أو صنع ما هو غير موجود في الطبيعة، وأن يشعل النار في شيء لم يكن موجوداً في الطبيعة من قبل ـ بعد إيجاده طبعاً ـ، ويستطيع على خلاف مشيئة الطبيعة ومقتضياتها أن يبني ما يرغب به، حتى نفسه، وأن

ينظر للطبيعة ملياً فيفهمها ثم يسخّرها لنفسه.

إنها نار الوعي والبصيرة للإنسان (الحرارة والنار تكافىء الإرادة، والنور يكافىء النظر والوعي)، وكل منهما إلٰه بحد ذاته (أي فوق المادة، والطبيعة لا تمتلك أياً منهما)، وهو أصل العذاب الدائم، الوحدة والقيود وعذاب الإنسان الأبدي. عجيب! إنه لأمر صحيح وعظيم. ما هي هذه النار التي حظيت بفخر الإنسان وهي مصدر عذابه؟ هل أنها نار سماوية وإلهية؟ أهي إنسانية الإنسان؟ إنها رؤية الإنسان ووعيه، ولو لم يكن الأمر كذلك فمن يمتلك هذا الأصل من الوعي والوعي الذاتي ويصبح أسير هذه الطبيعة وسط العناصر المادية الغريبة؟ فلا شك أن يكون على حالة بعيدة عن الإحساس والمعرفة فلا يمكنه أن يشعر بالعذاب والإضطراب الدئم. هل أن مسؤولية عذاب الغربة التي يعيشها الفرد في هذا العالم، ومسؤولية الإضطراب الناجم عنها، يتحمله هو؟

مثل هذه الحالات تطلق عليها الوجودية (الإضطراب الوجودي) amgoisse. وعلى حد تعبير (الفريد دوفيني) في شعره عن موسى: «إن الحيوان والنبات قد باتا ليلتهما في الأرض نائمين بأمان واطمئنان»، وفي الجنة حالهما كذلك نظراً

لفقدان التكليف وراحة البال والبعد عن العذاب، نفس المكان الذي كان يسكنه آدم.

وفي قصة آدم فإن تلك الثمرة المحرّمة هي نفسها هذه النار. والشيطان هو بروميثوس، وهبوط آدم من الجنة إلى الأرض، ومن السعادة والطمأنينة إلى العذاب والسعي المتواصل والإضطراب. وانتقال نوع الإنسان من السكينة هو نفسه الإنتقال ـ من حيث لا يعلم ـ من عصر حيوانيته إلى عصر معرفته لذاته حيث الإضطراب والوحدة والعذاب. وذكر في التوراة بشكل صريح وفي القرآن ـ بشكل غير مباشر ـ بأن الثمرة التي تناولها آدم نابعة من المعرفة والوعي، وإن العلاقة بين الشيطان والشعور واضحة. فمن لا شعور له كان بريئاً، فالمخلوق الذي يفتقر إلى الإرادة والوعي، كالحيوان والنبات لا يمكنه أن يتمرّد.

فالعبد المطيع الذليل الذي روضته الطبيعة وأصبح علىٰ هامش المحيط لا يمتلك إرادة، ناشىء من بناء جبر الطبيعة ولا يمكنه أن يبدع، ولا يدمر، فمن عجز عن المشي لا يمكنه أن يتخبط ويضل الطريق. فالشيطان الذي يعمل بالتضليل عاجز عن الحركة أمام الكائن الحي. فالناس البعيدون عن المشاكل هم أبرياء، ولكنهم لا يجدون نفعاً لله وللشيطان على حد

سواء! وما أكثرهم، يحرّمون كل المواد الغذائية وما في باطن الأرض فيصبحون بدورهم حراماً أيضاً، فعندما يهجو رئيسهم أو يسخر من أحد يغرقون بالضحك، وذلك لأن هذه المناسبة هي الزاوية الوحيدة التي يثبتون من خلالها وجودهم، إن هؤلاء لأدوات الزمن ووسائله وهم من تربية المحيط والطبيعة، إنهم معصومون عن الخطأ، لأنهم لو أخطأوا فلا ذنب عليهم لارتكاب ذلك.

ماهية الإنسان من وجهة نظر الدين

إن الإنسان لمخلوق ينطوي نصفه علىٰ الله والنصف الآخر علىٰ الشيطان. وإن قربه وتماثله مع الله كما ورد في الدين يبدأ من هذه النقطة بالذات. إذ أن روح الله قد نفخ فيه[1]. إن هذه الروح تعني معرفة الذات ومعرفة العالم وإرادة التدبير والخلق، فهي عند الله مطلقة وعند الإنسان نسبية محدودة بقوانين الجبرية العلمية، مشروطة بأحوال وظروف المحيط والطبيعة.

---

(١) لاحظ الخطأ الذي وقع فيه (الفاينايتيون) بأن الأديان تذلل الإنسان، أولئك الذين يرون في الإنسان حيواناً ناطقاً، حيواناً طبيعياً، مادياً مائة بالمائة ومحدود تتعيّن معالمه بأبعاد الطبيعة، أو حيواناً إقتصادياً أو غريزياً وجنسياً، هل أن كل هذه الرؤىٰ تذهب لتذليل الإنسان أم كون قربه من الله وخليفته على أرضه؟ ولكن ما العمل حينما قال الأفضلون منا كلاماً اشلّوا عنده منطقنا.

على أية حال، فإن الإنسان يعني الإرادة الواعية والخلاّقة والبنّاءة التي عندها تبدأ مسؤولية الإنسان. فعندما نذكر «مسؤولية» فقد سبقها ذكر «إرادة»، وعندما نذكر «إرادة» فقد سبقها ذكر «حرية». أي بعبارة أدق استخدمها فلاسفتنا وهي «الإختيار».

وعليه فإن هذا الأساس البديهي لا بدَّ من ذكره وأخذه بنظر الإعتبار، وعدم تناسي مفاهيم عديدة عند الحديث عن الإيمان بالجبر، أي نوع من أنواع الجبر، الجبر الإلهي أو الجبر ٣المادي، الجبر الحاضر أو الغيبي، لا يمكن التطرق إلى «المسؤولية» وذلك لأن «الحر» وحده هو «المسؤول»، و«الحر» من كان منشأ إرادته ورغبته في ذاته، يعني أن يختار شيئاً يمكنه أن يرفضه لو تسنىٰ له ذلك، أي أن عمله معلول جبري والعلّة إما أن تكون طبيعية أو ماوراء الطبيعة، ليست خارجة عن حدود نفسه.

مفترق طريق الإرادة والإجبار

هنا نصبح عند مفترق طريقين. لو اعتقدنا بالجبر، يعني الإنسان (ومن ضمنه إرادته) هو وليد وربيب محدود بعامل الطبيعة، التاريخ، المجتمع، الأصل، المشيئة الإلٰهية، مع

العلم أننا اعتبرناه فاقداً للإرادة الحرة، وهذا بحد ذاته يعني سقوط الإنسان. يعني نفي كلّ القيم الأصيلة فيه، ونفي أية مسؤولية تناط إليه، أي نفي كل شيء عنده، القبح والجمال، الخدمة والخيانة، الحسن والسيء، الوضاعة والتعالي، الإنحطاط والرقي، التجسس والجهاد، وكلها من الخواص الفيزيائية والكيميائية للعنصر الذي يسمىٰ الإنسان، يعني هباء. فالإنسان كثمرة المشمش التي تزرع فيصبح لبها (نواتها) مراً تارة وحلواً تارة أخرىٰ.

لقد تمرّد (اسبرطَقوس)[١] ضد العبودية وعصىٰ الأوامر التي تجعل من الإنسان عبداً، إن تمرّده كان مثل غليان الماء الموضوع علىٰ النار، إنه تمرّد على صفته الطبيعية لأنه بني على أساس العصيان ولم يكن بمقدوره ألاّ يعصي، لقد كان التمرّد راسخاً عنده بشكل كانت روحه في لون بشرته أو عينيه. كما (نيرون) الذي أشعل روما ليتلذذ، وبوذا الذي اشعل نفسه لينجي مدينته، فكل منهما كان مسؤولاً عن أعماله، بحرق المدينة أو حرق إنسان.

نلاحظ أن الإيمان بالجبر يعني عدم الإيمان بالإنسان،

---

(١) إسبرطقوس ـ spartacus: عبد تراقي الأصل، تزعم ثورة العبيد في إيطاليا عام ٧٣ ـ ٧١ ق.م. «الناشر»

فعلى حد تعبير (غورفيتش) نوع من «الأجساد» لا تؤمن بأرادة حرة ومسؤولية إنسانية في تقرير مصيرها، بل والأكثر من هذا، التسليم لما كتب على الجبين. وتبقى القضية جوفاء غير ذات معنى التي سوف نتحدث عنها، وهي لكرام الكاتبين (Saint Eceiture) في التاريخ أو وسائل العمل أو الطبيعة أو الجغرافية.

ومن جانب آخر، لو أمكن لنا أن نقرّ للإنسان إرادة مستقلة عن المحيط لتمكنّا من أن نحفظ «قيمة» و«أصالة» الإنسان، ولكننا سلّمنا ضمناً للإيمان بنوعٍ ما من الميتافيزيقية وصرفنا النظر عن العلم في نفس الوقت، إضافة إلى الحقائق الملموسة والتي نحس بها.

فكيف يمكننا أن نطلق على عالم الطبيعة المكبل بسلاسل العليّة بحيث لم تعد أية حركة، حالة أو ظاهرة مجردة، لم تعد موجودة، ونسمي شيئاً ـ بشكل استثنائي ـ «إرادة»، ونرىٰ في تلك السلاّسل بأنها الحرية التامة، وهو مستقل بأية نزعة أو حركة يقوم بها. ونصفه بأنَّ لديه القرار دون أن يكون قرار المعلول علّة واحدة أو علل عديدة، إنه اتخذ القرار حسب رغبته وكان يمكنه ألاّ يقرر أيضاً، أو أن يتخذ قراراً غيره.

وعليه فإن الإرادة يجب أن تكون «العلّة الأولىٰ» و«علّة العلل»، علّة قبل أن يكون للمعلول أية علّة قبلها، يعني الإيمان بالمفهوم ووصوله إلى الواقع، ذلك المفهوم الموجود في ذهننا من الله. وعليه فإن النظرة تكون بأن الإنسان هو علّة نفسه، وهذا يؤول إلىٰ أنّ الإنسان هو الله أي «الأول».

ومن ناحية أخرى نعرف بأن الإنسان ظاهرة طبيعية، وليد العوامل المادية، ظهر من الأرض وارتبط بالآلاف من فروع العلّية العلمية لهذه الأرض، ولهذه الطبيعة المادية، فإن أقل تغيير في الماء والهواء والغذاء ينعكس هذا التغيير في فكره وحاله وسلوكه. ولو أخذ حماماً بارداً في الصيف لانتعش وتغيرت نظرته للعالم، ولو شكىٰ ساعةً من معدته لأصيب باليأس الفلسفي. مثل هذا المخلوق هل يمكن أن يكون له الإرادة المجرّدة والحرة من العلّية والمستقلة عن الطبيعة وهو العلّة الأولىٰ وأُولىٰ العلل؟ في هذه الطبيعة التي لو اختلطت حركة الكواكب السيارة قيد أنملة لانقلبت الطبيعة على حالها. فكيف يمكن للإرادة أن تكون بعيدة عن كل عوامل العلل في الطبيعة، وفي عالمنا هذا الذي تصبح أية علّة هي ذاتها المعلول فكيف يتسنى لنا أن نحسب إرادة الإنسان الذي هو من نوع هذا العالم الذي عرّفه الحكماء والعارفون القدماء بأنه شعلة الهية

وعنصر ملكوتي وقع من عالم المُجرّدات إلى عالم العلل والأسباب.

ليس لنا من بد غير هذا، وانطلاقاً من الضرورة لم يرم الفلاسفة من أبيقور[١] وحتىٰ سارتر، وبضمنهم الماديين، أن تفقد القيمة المادية المسؤولية والإرادة مما يضطرون أن يواجهوا نوعاً من المثالية الميتافيزيقية. ولكن ما يخالف النظرة إلىٰ العالم هو أخذ «الإستثناء غير المادي» عن الإنسان بنظر الإعتبار مما شكل له بعداً غير طبيعي. ونذكر هنا (أبيقور) الذي يعد باني (الأبيقورية)، وقد آمن بأصالة الذرة تحت تأثير لوسيب (لوقيبوس) وأنكر الروح والعالم تماماً، يقول: «كذلك الإنسان هو الروح شيء مادي ناشيء من الذرة وبموته تفنىٰ هذه الروح. أما الإنسان فطالما أنشأ من مجموعة الذرات واكتسب الحياة المادية، هبطت شعلة من السماء واستقرت لدىٰ الإنسان وظلت ملازمة له، ولأن الإنسان يموت وتفنىٰ روحه لذلك ترجع تلك الشعلة إلى السماء»!

---

(١) لم يذكر شريعتي شيئاً عن حياة أبيقور، ولكن على الأرجح أن يكون الفيلسوف اليوناني (٣٤١ ـ ٢٧٠ق.م) Epicuoros مؤسس مذهب الأبيفورية، وتلميذ غيزنوكرات (أقسنوقراطيس)، الذي إعتبر اللذة غاية الإنسان وهدفه وقال: أن اللذه لخير مطلق، ويجب أن تكون أعمالنا متجهة إلى كسب ذلك، ولم يقصد اللذة الشهوانية، بل كانت نظرته للذة الروحية والمعنوية وكسب الفضائل. «الناشر»

إنه ليس من قبيل الصدفة أن يضطر سارتر أيضاً ـ الذي يعد من أكبر الماديين والديالكتيكيين المعاصرين ومنكري وجود الله وما وراء الطبيعة ـ أن يضطر لاعتبار الإنسان نسجاً ويقول «بأن كل ماهية الظواهر الطبيعية في العالم (essances انشأت قبل وجودها Existance) عدا الإنسان إذ سبق وجودُه ماهيته»! .

ألم يكن هذا نوعاً من الميتافيزيقية بحد ذاته؟ ألم يكن هذا هروباً من العلّيّة؟ ألا يرغب أن يفك وثاق الإنسان من سلاسل العلّيّة وجبر الطبيعية وينشأ له ذات غيبية وما وراء الطبيعة؟ عندما يقول سارتر: «أنا أختار وأنا حرّ في إختياري» (ولو أن هذه الأنا الحرة الإختيار كانت محدودة بين أربع جدران (situations)، وهل هذه الأنا عنصر إلٰهي خارج عن الطبيعة؟ وبعبارة أخرىٰ علجة لغير معلول ويعتبر من نوع (ولم يولد). لماذا؟ إن مذهب أصالة الإنسان (Humanism) لو ارتقى من مستوى الإبتذال الغريزي ووصل إلى نوع التمحور حول نفسه (egocentrisme) بشكل أناني وبدون الإستناد إلى مبادىء اليونانيين القدماء وبعض الراديكاليين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وتعمق بشكل أكثر من القيم الفضلىٰ وأقوم من الذات الإنسانية، فسوف نخلص إلى مبدأ (الإنسان هو استثنائي في العالم).

إن هذه الضرورة العقائدية والإنسانية حدت ببعض الفلاسفة مثل جورج بوليتزر George Politzer مؤسس الجامعة العمالية في فرنسا ومؤلف «أصول مدخل الفلسفة» الذي يعد من قادة الفكر المادي والديالكتيكي ومن الوجوه المشهورة للماركسية، حدت به هذه الضرورة أن يقع في التناقض في الكلام أو التناقض في الرؤية حول الإنسان إذ يقول: «من الناحية العملية يمكنني أن أصف أنفسنا ـ نحن الماركسيين ـ بالماديين، ومن الناحية الأخلاقية فنحن مثاليون». ألا يعني هذا بأن «الإنسان هو مادة غير مادية»؟ لماذا يضطر بوليتزر أن يعطي مثل هذه الأتاوة إلى المثالية؟ لأنه يرى بأن «الإنسان حيوان يفدي حياته لحياة الآخرين». وهذه ظاهرة منطوية على أسرار عجيبة لا يمكن وضعها في إطار التعليل المادي والأصالة الإقتصادية.

حقيقة الإنسان

إذن ماذا يمكن أن نفعل؟ يعني كيف يجب أن نفكرّ هل يمكننا أن نجرّد الإنسان من كل العلل والعوامل في هذا العالم ونقرّ له حريته واستقلاله، أم نحفظ كرامته الإنسانية وقيمه المتعالية، أم نعتبره معلولاً مادياً للعلل الخارجية وعندها نغض النظر عن نوع من القضاء والقدر الغيبي أو الملموس، ونقرأ

على مسؤولية وحرية الإنسان الفاتحة؟ أم نقرّه على أنه حيوان أعقد، ووسيلة أثمن، بيد الآخرين؟ وهل أن الحلقة الذهبية في سلسلة العلّة والمعلول الأبدية تعني الجبر؟

وصلنا تواً إلى ذروة المسألة، ولعل صعوبة وتعقيد الموضوع ستزال. قد تلاحظ أن الشيء الذي خلصت إليه في هذه المحاضرة هو الدوار والغموض وتعقيد الأمور ووضعها الذي صار أكثر مجهولاً، لا شك أن لسان حالكم هو أن المشكلة كانت واحدة والآن صارت عشر مشاكل. أنا متأكد بأنني كنت مفلحاً لحد الآن، وما أردت أن أقوله قد طرح، وأن حديثنا قد سلك درباً كأي اطروحة علمية غير مغرضة، هدفها تقصّي الحقيقة. لأننا تعودنا أن نطرح القضايا العلمية بشكل يتسنىٰ لنا حلها بسهولة، وندوّن نص القضايا بالصورة التي نستخرج فيها الجواب من ذلك النص بسهولة أيضاً. وهذا العمل يتطلب حكماً، بحيث يتعهد بعد بحث القضايا وتقصّي الحقائق وعرضها أن يرضى بالنتيجة التي يتقبلها العموم، مثل هذا الشخص كمثل إنسان يبحث عن شيء افتقده أمام مجموعة من الفضوليين وهو يعرف مكان الشيء المفقود، فيخدع نفسه بأن يجوب هنا وهناك وخلف الحائط وتحت تلك الشجرة وقعر ذلك المخزن ويبدو جدياً ومعصوماً في بحثه فيقع نظره ـ صدفة

ـ علىٰ نفس ذلك المكان الذي خبأه فيه. إن مثل هذا البحث خدعه وهو عقيم، وهذا هو الواقع من تواجد أعداد غفيرة من العلماء وتجد كل بحوثهم صدفة طريقها إلى «الحقيقة» التي كانوا يرومون الوصول إليها، ويبدون بأن الشيء الذي توصلوا إليه كانوا يعلمون به أو يرغبون فيه. نلاحظ غالباً بأن العلماء والباحثين الدينيين يصلون إلى نتائج، كان عموم الناس يعملون يكدّون من أجل الوصول إليها.

ولعل مفكرينا وكتابنا الجدد يعدون دوماً في سباق (الماراثون) دون النظر أو التلفّت إلى يمينهم ويسارهم، ثم يصلون أخيراً إلى خط النهاية الذي «ينتظر» عنده الناس ليشجعوا رياضييهم. فالبطل من يصل خط النهاية قبل غيره. وما يدعو للشك والتأمل هو أن الباحث والرياضي قد يلاقيا التأخير فيسببوا تصدع المشجعين وأعضاء النادي ليس إلاّ.

المفاهيم الإنسانية في قصة آدم

تبدأ مسؤولية الإنسان من هذه النقطة، إن إيماني بفلسفة جبر التاريخ، وايماني بعلماء الإجتماع ومذهب علم الإجتماع Socialism (أصالة المجتمع، وعلم الإجتماع)، وإيماني بالطبيعة Naturism أي مبادىء العلوم الطبيعية وتأثير المحيط الجغرافي على الإنسان، ولديَّ الشكل المادي للإنسان، وأنا اتفق مع

الطبيعيين Naturalism في نظرتهم بأن الإنسان يعيش في الطبيعة ويقع تحت تأثير الطبيعة نفسها. وأؤمن بأصالة التاريخ Historism التي تذهب إلى أن التاريخ وحده يصنع الإنسان وليس ثمة شيء لم يخلص إليه التاريخ. وأؤمن بأن التاريخ يصنع ماضي الإنسان وأصالة المجتمع. وأؤمن بأن أي فرد هو نتاج المجتمع، وحتى أصالة العامل الإقتصادي وشكل العمل. وأؤمن بأن الإنسان يتم إعداده تحت تأثير شكل عمله، وأؤمن بأن العامل الإقتصادي مؤثر في الحياة الإجتماعية للإنسان وحتىٰ من العوامل الأكثر تأثيراً في حياته.

هذه أوجه الترابط بين المذاهب المذكورة، وحتىٰ مذهب هيغل الذي يقول بأن فرق الإنسان عن الطبيعة في إرادته وقدرته علىٰ الإبداع، وفي مستقبل الإنسان عن طريق تجلّي الإرادة الإلٰهية أكثر فأكثر ـ حسب ما أُؤمن به ـ، وحسب ما ذهب إليه هيغل وصول الإنسان ورجوعه إلى الروح المطلقة، وهما نظرتان متقاربتان والإختلاف في التعبير فقط.

وهناك موضوع آخر ينطوي علىٰ كل هذه المذاهب، ولئن الواقع كذلك، ولأننا نرىٰ من يعيش في الصحراء الإفريقية، ونرىٰ المجتمع الذي يعيش في الظروف القاسية أو العادية أو المترفة، سواء كان هذا المجتمع صحراوياً أو جبلياً، فبالنسبة

لموقعه الجغرافي أو طريقته الإروائية أو وضع إنتاجه أو غذائه ولون بشرته. . .

وعليه لا ينبغي أن أنكر بأن عامل الطبيعة هو العامل المؤثر في بناء الإنسان وكيانه، وأنا أعلم بأننا لو لم نكن منتسبين للتاريخ الماضي (الإيراني ـ الإسلامي) وكنا في خاتمة تاريخ اليونان، أو أوروبا الغربية لكانت لنا نظرة أخرى، شعور آخر.

لا يمكنني أن أنكر بأن التاريخ عامل أثّر في بناء كياني أنا كإنسان، ولا يمكنني أن أنكر بأن الفلاّح الذي يستخدم المعوّل أو الأدوات اليدوية في عمله يعمل لوحده في المرعى، ولو تسنىٰ له أن يعمل مع عامل الساحبة (التراكتور) لكانت طبيعة عمله جماعية ولكوّن علاقات إجتماعية خاصة مرتبطة بنوع عمله، لعمل في الظروف الجديدة لحياته. إن الأمر ليختلف وإن هذا الإختلاف نابع من شكل العمل وأدواته أو وسائله.

وعليه أنا أتقيد بهذه النظرة العقائدية في علم الإجتماع، ولا يمكنني أن أنكر بأنَّ المجتمع عبارة عن أكبر عامل يؤثر في شخصية الفرد الذي بدوره يعكس وجهة المجتمع كالمرأة، وأن ضميري عبارة عن مرآة تبين مجتمعنا وكل الأشخاص الذين

علىٰ علاقة حميمة معي، وأنا أعلم بأن الكثير من التحوّلات والصراعات، الحروب، الفلسفات، النهضات المعنوية لها ارتباط مباشر ووثيق بالعامل الإقتصادي من حيث العلّة والمعلول. أنا أُؤمن بكل هذا، أمّا (ويقال اللعنة على ما يأتي بعد أمّا)، أمّا ثمة فوارق بين كل ما موجود، بين ما لم يؤخذ بالحسبان مع ما يجب أن يكون.

إنّ هاتين المرحلتين في قصة خلق آدم في القرآن، لواضحة جداً. كم هو رائع، ما تبينه قصة آدم: الإنسان، آدم، الله، العالم، رمز الإنسان، أي تبين صفات الإنسان. وأن ما يعرّفه القرآن في أية اقصوصة وردت ضمن هذه القصة، كان بيان عن كيفية وماهية هذا النوع، إمضوا وتمعّنوا وفق هذه النظرة في قصة آدم لتجدوا عظمة وكثرة المعاني الجديدة والدعوة الجليلة لأصالة الإنسان الكامنة فيها. إنه لمخلوق جبله الله تعالى على عنصرين، انظروا كمال جماله مهما نظرنا إليه بالشكل الظاهر الحاضر دون التطلع إلى فحواه لوجدناه شيئاً غامضاً، لا يتقبله الإنسان تباعاً، وإذا ما نظرنا إليه بشكل حقيقي وعميق كان صحيحاً ولا يمكن لأحد أن ينكره، ففي البداية أراد الله أن يخلق خليفة له في الأرض يشبهه في الصفات، مطابقاً له، فصاحت الملائكة، وعليه فإن الرسالة الإلهية وكذلك إلٰهية

الإنسان في مقولة الله واضحة تماماً. (وتخلّقوا بأخلاق الله) حيث الأمر الإسلامي الرسمي، فمن يتمكن أن يتخلّق بخُلق الله؟ إلاّ من كان لديه الإستعداد الكامل لتنفيذ هذا الأمر، يعني الإنسان السائر في المسار التكاملي، يمكنه أن يتملك الصفات الإلٰهية إلىٰ حد غير إلٰهي، ممكن أن يكون في حد إنساني، فهذا بحد ذاته يعني التكامل الإنساني.

مسؤولية الإنسان

تظهر مسؤولية الإنسان من هنا ليست مسؤولية سارتر المعلقة في الهواء، ولكن أنت مسؤول. مسؤول عن أي شيء أنا مسؤول؟ عن حُسن نيتي. ماذا يعني الحُسن؟ عندما لم يكن ثمة ملاك، لا الأرض ولا الدنيا ولا السماء تعني شيئاً وليس لها شعور، فلم يكن لدىٰ الإنسان عقلٌ ولا كيفية خاصة، ولم يكن معلوماً كيف يجب أن يكون، فمن المعلوم أن يكون معلوماً كيف يجب أن يكون، وكيفما يتسنىٰ له أن يصنع نفسه بنفسه، فمن يميز الحسن والقبح لديه؟ أنا أُشخّص وأُميّز ذلك الشيء، أنا أعرف أن ذلك حُسناً وأنت تقول بأن لا يحق لك أن تعترض عليَّ، لأنني اخترت هذا العمل من تلقاء نفسي، بحريتي، ولكن يقال بأن المسؤولية تبدأ من هنا،

حيث أن ما عملته يمكن أن يكون للآخرين مثلاً اعلىٰ، أنت مضطربٌ ومهووس لأنك تريد أن تنجز أفضل الأعمال، لأن الإنسان يحرص ويود أن تكون كل أعماله على الوجه الأفضل، أقول نعم، أنا لا أحب بتاتاً، أن أحب أن أنجز كل أعمالي علىٰ أتعس وأسوأ ما يرام، فالمسؤولية، عندما جاء الأنبياء وقالوا للإنسان: ثمة رب خالق أقرب إليك من حبل الوريد، له ما في السموات والأرض، يشرف علىٰ كل أعمالكم، ويكافيء من عمل مثقال ذرة خيراً أو شراً، ومثل هذه الجنة وهذه النار أعدت للأعمال الطيبة والسيئة التي تبدونها. ولو آمن الناس بهيمنة الله وقدرته وجبروته وجزاءه وعقابه، لعرفنا كم يكونوا جديين ازاء تنفيذ مسؤولياتهم. ولو أوحينا إلى الإنسان بأن ليس هناك شيء، لا الله، لا الجنة، ولا النار، لا الحساب، ولا جزاء ولا عقاب، ليس ثمة ملاك، وليس ثمة من يميّز الأعمال وهو أعلى من كل المخلوقات، ولا يملك الآخرون ملاكاً ولا دوراً على أساسه يمكن أن نصنع أنفسنا ونبني كياننا، وأظل أنا ورغباتي فقط ولا شيء سواها في هذه الدنيا التي تطبق عليها اللاشعورية وعلىٰ قولك: (لعل كل شيء هباء، فالسماء حمقاء)، والأحمق هو من لم يحس المسؤولية (ضحك الحضور). أنا

لا أريد كما أراد (غوبينو)[1] و(بترى) وبقية الفلاسفة العرقيين من القرن التاسع عشر والقرن العشرين أن أُفضّل العنصر الجرماني أو الآري وأعزو التكامل في التاريخ إلى ذلك العامل العرقي، (أود أن أذكر ـ اللاءات ـ وسبق أن ذكرت ما اتفقت عليه مع المذاهب لكي نخلص إلى نتيجة)، ولا أُريد أن أصبح مثل (شينجلر) الذي رأىٰ بأن الثقافة هي أصل ومبدأ التكامل والحضارة فحصر الأناس في إطار ثقافي. ولا أؤمن بما ذهبت إليه المادية علىٰ أن كل العوامل والإجهادات وحاجات الإنسان على طول تاريخ البشر ولحد الآن وخاصة في المستقبل لا يمكن بيانها بالعامل المادي. ولا أوافق فكرة أن إضطراب الإنسان وسلوكه يتمما ظروف الحياة ويكملاها. وأؤمن بأنها من السذاجة والتفاهة أن أقول بأن تمرّد وإضطراب الفكر لدىٰ المفكرين والمثقفين والشباب الغربي اليوم يقع في إطار القضايا والحالات الإقتصادية، ولو تمكنا أن نوفر لكل طبقات الناس الظروف الإقتصادية المناسبة لأزلنا آثار العذاب لدىٰ الإنسان والإضطراب الفكري لدىٰ القلقين منهم، على

---

(١) غوبينو (جوزف دو) Gobineau (١٨١٦ ـ ١٨٨٢م): أديب وديبلوماسي فرنسي. اشتهر بدراساته وبحوثه «التفاوت بين الأجناس البشرية»، تأثر به أصحاب نظرية العنصرية الجرمانية. له روايات وقصص منها «الثريا» و«قصص آسيوية». «الناشر»

الرغم من كوني على ثقة بأن في القرن الذي يتواجد فيه الجوع والعذاب المادي، وأيّاً من القضايا الأخرىٰ التي تأتي على خاطر أي مثقف آخر وتخلّىٰ عن زمانه ورسالته وطرح المجاعة كأولىٰ القضايا التي يجب حلّها، وأنَّ التفاوت المادي أو الطبقي يجب أن يزال، ويجب أن تقام العدالة الإنسانية والمساواة لعموم الإنسان، وهي من المثل العليا التي يصبو إليها الإنسان. ولكن المثالية النسبية هي الوسيلة الوحيدة التي يجب على الإنسان حلّها وهذه المثالية تتعلق بمعرفة نهجه وسلوكياته الكلية، والتفاوت الطبقي، وتوزيع الإمكانيات الضرورية للعيش بصورة متساوية، ليس حلّها فحسب بل أن الحالة المذكورة واجب يتبناها المفكر في رسالته الإجتماعية في أي زمان كان، وهذا أساس أي عمل في المرحلة التكاملية للتاريخ، أي يتبناها المفكر في المستقبل، وهذا لا يعني نهاية المطاف ووصول الإنسان إلى مأربه ومنزله الآخير، بل الحياة الأفضل، والعدالة الإجتماعية، والسلوك العام القويم مع الثروة والإمكانيات المعنوية، إن الشرط الأساس والأول هو التوجّه نحو الـ(ماوراء) وليس المنزل الأخير، حيث أن في الـ(ماوراء) المثالية التي يقف الإنسان عندها. ولأنني أؤمن كما علمتني التجارب، بأن العمال أو المحرومين الذين

توفرت لهم ظروف حياتية أفضل للعيش وسط المجتمع أو بشكل آخر ولكنهم ليس لم يتمكنوا أن يتقدموا في أخلاقيتهم فحسب بل نزلوا بها إلىٰ الحضيض وخيّم على وضعهم الإنحطاط الخلقي. لماذا يسخر ذلك البرجوازي المتخم بملذات العيش والبذخ وقد نذر كل حياته للذاته الغريزية الدنيئة، لماذا نهجوا الحياة البرجوازية؟ فلو وضعنا الإقتصاد هدفاً لا أساساً، فالذي أوافقه هو الشكل الثاني (الأساس)، ويختلف مفهوم الهدف والأصل. أما الأساس فهو بداية كل شيء، كالسلالم، حيث يكون السلم الأول هو الأساس فيؤدي بي بعد تخطّي السلالم إلى سطح المنزل، وأما الهدف فهو سطح المنزل. أنا أوافق العامل الإقتصادي (كأساس)، ذلك الأساس الذي يمكنني أن أصل إلى (الهدف)، أما سطح المنزل نفسه فهو شيء آخر، لو كان لهذ الإنسان طبيعة عدائية لأصبح الإنسان كالحيوان الذي يربط في الإسطبل ويُملأ معلفه ثم نلاحظ بأنه قد سمن، لقد حططنا من شأنه، فإن الإنسان لم يكن ليلحظ جنته وسعادته بعينه فحسب، بل العذابات الأسوأ والتمرّدات الأعمق تنهش روحه، وفيما لو رأينا اليوم مرارة التمرّد البرجوازي والمجتمع المترف الغربي فإن الأمر لصعبٌ وقاسٍ حقاً، في الوقت الذي لا يعاني هؤلاء من نقص

في معيشتهم المادية، مثل عذاب كامو، عذاب سارتر، يعني لو أُقِرَّ العامل الإقتصادي هدفاً للجميع، أي نجعل من كل المجتمع برجوازيين، أي أن الطبقة المترفة الغنية التي نبغضها ونبغض أخلاقها، ذاتها ودنياها، ورؤيتها، ونسعىٰ أن تكون محاربتنا إياها أكبر وأشمل، ومهما وسّعنا من رقعة حربنا مع أولئك البرجوازيين فإننا لم نصل إلى المثل الذي كنا نبتغي، وهو أول واجب يناط بنا. ولكن لمن هذا الواجب؟ لأجل أن يستمر التكامل البشري في تكامله. أيّ تكامل؟ أن الإنسان يعني القوة الإلٰهية فيه، كما أردنا أن نقوله في خلق آدم، ماذا عمل الله عندما أراد أن يخلق الإنسان على شاكلته سبحانه وتعالى، ويجعله خليفة في الأرض؟ لقد اختار مادته من حَمَإٍ مَسْنُون، والحمأ المسنون يعني الوحل المتعفن. يريد أن يخلق له خليفة في الأرض وأميناً له فيها، يريد مَنْ يعرفه، يخلق، ويجعل الملائكة تسجد له، وعند قدمي الإنسان، خلق الخلق من نور ونار ليكونوا خلفاء له ومثيليه وانيسيه، يعرفونه ويخلفونه، ويكونون أمناء له، فأختار أولئك المخلوقين من الوحل العفن ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1]. وعندما يتم من ذم الطين يدخل مرحلة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٦.

فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾(١)، وبعد أن يستقيم ويستوي، نفخت في هذا التمثال من روحي، تلكم روحي أنا. وبعد خلق الإنسان وإنشاءه، ماذا يعني هذا الإنسان؟ إنه يعني مخلوق من العفونة والبلادة والوضاعة اللامتناهية التي يرمز إليها بالوحل العفن، لتضاف إليه العظمة والجمال والكمال والجلال، يعني الله، روحه، التي كانت بعيدة عن مادة خلقه، فتتفاقم منها مسؤولية الإنسان ورسالته، ومن هذه الناحية نلحظ وجه التشابه مع كلام هيغل. أنا اؤمن بذلك، لا كما ذهب إليه هيغل، ولكن لو صُبّ كلام هيغل بقالب إسلامي لانطبق مع ما ذهب إليه الإسلام، فعلى حد تعبير علماء الإجتماع أن الإنسان مخلوق يستطيع أن يتمرّد، أن تكون لديه إرادة ذاتية، قدرة الإبداع، التشخيص والتمييز بين السيء والحسن، تسلم مسؤوليته بنفسه. وأنا أرىٰ بأن المسؤولية وليدة الإعتبار والإرادة عندي، فعلىٰ قدر ما يمتلك المرء من حرية لديه الإرادة وحق الإختيار ازاء الطبيعة، وإزاء المحيط وحتى الوراثة والتربية والتعليم، ازاء كل شيء يدخل في نشأة ذلك الإنسان، وعند ذلك يمكن أن نسميه إنساناً.

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

سجون الإنسان الأربعة

أين تكمن حرية الروح؟ في أربعة سجون:

١ ـ سجن الطبيعة.

٢ ـ سجن التاريخ.

٣ ـ سجن المجتمع.

٤ ـ سجن ذاته، وهو أول السجون.

أما بالنسبة لسجن الطبيعة فنرى أن الأفراد مسجونون ومقيدون وفق ظروفهم، إذن فالإنسان مقيد بقوانين جبر الظروف الجغرافيائي.

فالتاريخ كما قلت بأنني انتمي إلى أية فلسفة تاريخية، ولكن كيفيتي تختلف تماماً، وأنا أشعر بأن إرادتي في كياني ولكنها أسيرة التاريخ وسجينته.

والسجن الثالث هو المجتمع، فعلى قدر ما يتدخل المجتمع (دون علمي) في بناء ذاتي، ولم أتمكن أن أسلك سلوكاً مغايراً لذلك، فأنا سجين ذلك المجتمع.

والسجن الرابع هو الذات. أنا أرى كثيراً من المقتدرين ليس فقط حاولوا التأثير بل استطاعوا صنع التاريخ والمجتمع وتقرير مصائرهم، أولئك استطاعوا أن يتخلصوا من سجون

ذواتهم. ماذا يعني هذا؟ كيف يتسنىٰ لنا أن نحرر الإنسان من ثلاثة سجون: التاريخ، الطبيعة والمجتمع؟ فمن ناحية سجن الطبيعة لاحظنا كيف تحررنا منه، فالجاذبية هي احدى جدران سجن الطبيعة التي ألصقتنا بنفسها، فبواسطة التقنية ومعرفة الطبيعة تمكنا من كسر هذا الجدار وتحطيمه، فنستطيع أن نتخلص من هذا السجن عن طريق ذلك المنفذ، أي الجدار الساقط، وأن الظروف في الصحارىٰ التي تفتقر إلى كل شيء، تستطيع إيجاد المشاريع الصناعية الحديثة، وإحداث المدن هناك، وكل ما تتطلبه مقتضيات العيش في الصحراء، ونستطيع أن ننشأ ما يتناقض وطبيعة الصحراء، على رغم الظروف الطبيعية، وحتى بالنسبة لطبيعة النباتات والحيوانات نستطيع أن نُحدث التغييرات التي تخدمنا، كتغيير ثمارها وجعل الحيوانات حلوبة أكثر . . . وحتى معدل الإنتاج المقرر وفق قوانين جبر الطبيعة قابل للتغيير والتحسين، على هذا النحو تحررنا من سجن الطبيعة وابتعدنا عن ذلك السجن رويداً رويداً. ونستطيع أيضاً أن نتحكم بهذا السجن، أي الطبيعة، وذلك بواسطة العلم ومعرفة الطبيعة وإتقان العلم والتقنية.

كيف يمكننا أن نتحرر من سجني التاريخ والمجتمع؟ فعلىٰ قدر ما نعرف التاريخ وندرك مغزىٰ جبر التاريخ، لكوني قلت

بأنني أؤمن بجبر التاريخ، وندرك أيضاً هذه المنازل التي عيّنها التاريخ التي تقضي بمرور الإنسان فيها، ولو لم نتدخل في الأمر، ما هي المراحل التي سوف يمر بها الإنسان؟ قد يتسنى لنا أن نجتاز منزلة واحدة أو منزلتين وضعت عند أقدامنا، لو عرفنا التاريخ، جبر التاريخ، مسيرة التاريخ، المسيرة الجبرية للمجتمع البشري علىٰ مر العصور، كل ذلك مشفوعاً بالعلم.

كذلك يمكننا تسخير المجتمع طيّعاً لأنفسنا. أرأيتم أو سمعتم بدوياً ناشئاً من صلب روح مجتمعه وقبيلته أن يتمرّد على تلك القبيلة ويعلن عصيانه. أسمعتم بأن أحد أفراد القبيلة البدوية يتمرّد على شكل وطبيعة المعيشة في القبيلة وتقاليدها وشكل إدارتها وحالة إنتاجها؟ أو يثور على دينهم وعقائدهم ويعصي التعاليم المتبعة فيها؟ كلاً، بأي شكل من الإشكال لا يمكنه أن يفعل ذلك، لأنه نشأ من ذلك المجتمع نشأة أعمى. ولو تسنى لذلك الإنسان أن يعرف المجتمع ويدركه، سيكون علىٰ علم بالمجتمع وبالعلاقات الإجتماعية، ومراحل جبر التاريخ لمجتمعه وشكل معيشته، فلا يؤثر بعدئذ المجتمع في بنائه كثيراً، بل سيعمد إلى بناء مجتمعه.

وفيما لو استطاع الإنسان اليوم أن يغيّر في مجتمعه، العلاقات الإجتماعية، مراحل جبر التاريخ لمجتمعه ـ طراز

معيشته، نمط إنتاجه، بطرق وقوانين علمية، لتمكنّا عنده أن نقرر مصير ومستقبل الجيل القادم ونبنيه علىٰ ذلك الأساس. وهذا يبين بأن العلم يخدم المجتمع، حيث أمكننا بواسطته أن نحكم السيطرة علىٰ مجتمعنا، فلا يضحىٰ المجتمع سجناً لنا، بل أصبح المجتمع من صنع أيدينا نسيطر على كل كيانه.

إذن يستطيع الإنسان على مرّ التحولات التاريخية أن يتحرر من سجن الطبيعة، وسجن التاريخ ثم المجتمع تدريجياً، على قدر ما يكتسب من علم يمكنه أن يخترق به حواجز السجون الثلاثة المذكورة. وبذلك تزداد قدرته وإرادته وتتحقق الرسالة والإرادة الإلهية التي يسعىٰ إليها وهي نشأة مخلوق شبيه به (سبحانه وتعالى) يستخلفه في الأرض.

أما السجن الرابع الذي هو الذات، فعلى حد تعبير (توينبي)[١]: «قد بيّن التاريخ بأن أُناساً تمكنوا من كبح جماح أهوائهم وغرائزهم، عاداتهم، لذاتهم الشخصية، أذواقهم

---

(١) توينبي (أرنولد) Toynbee (١٨٨٩ ـ ١٩٧٥) مؤرخ وعالم اجتماع انكليزي. طرح نظرية في تعاقب الحضارات المحلية المغلقة، التي تمرّ كل منها بنفس مراحل النشوء فالنمو فالتأزم فالتفسخ، وذهب إلى أن القوة المحركة للتطور هي «النخبة المبدعة» وصوّر تقدم البشرية في صورة ارتقاء من المعتقدات الأنيمية الساذجة، مروراً بالديانات الشاملة، وانتهاءً بديانة واحدة في المستقبل. «الناشر»

واجهاداتهم الفردية، واستعاضوا عنها بعقيدتهم وإيمانهم بالآخرين وبالمجتمع وبذلك تمكنوا لقرن من الزمن، أو لجيل من الأجيال، أن يوجدوا تاريخاً خاصاً، سيدنا موسى، عيسى، رسول الإسلام، بوذا (ولا زال الكلام لتوينبي)، من هم هؤلاء؟ لماذا يختلفون عن الآخرين؟ اختلافهم الوحيد أنهم أنقذوا أنفسهم من سجن ذواتهم المادية والحيوانية فتمكنوا أن ينقذوا أنفسهم ويحرروها. ولأجل ذلك، وعلى الرغم من ذواتهم، انشأوا ذوات أخرى، هذه الذوات لا تعرف الأب والأم، لا المحيط، لا المدينة، لا التاريخ، لا العائلة ولا الطبيعة، بل البناء بعينه».

العذاب الفلسفي والمادي

الإستنتاج الثاني (وهذا هو الإستنتاج الأخير مع وافر الإعتذار) هو الإضطراب والألم والعذاب الإنساني، ازدواجية العذاب الذي لا يمكن ادغامه ببعض. أحدهما العذاب المادي من الفاقة والعوز، أي قلة المأكل والملبس والمال، وهو عذاب إقتصادي، وأن العذاب الذي أعانيه ـ مثلاً ـ هو اشفاء غليلتي الغريزية والطبيعية لجسدي. إذن يجب توفير الإمكانيات الحسنة من مأكل ومشرب ومسكن وعيش رغيد كأي فرد سلك هذا المسلك.

وعليه فإن كل المذاهب الإجتماعية التي تروّج للعوام أصالة العامل الإقتصادي، تستطيع أن تجيب على هذا العذاب فقط الذي يعاني منه الإنسان، وعليه يجب أن نؤمن به. ومن هذا المنطلق يجب على كل إنسان أن يسعىٰ لمحو آثار عذاب الجوع والفقر والحرمان من المجتمع البشري.

أما العذاب الثاني فهو يتعلق بما وراء الطبيعة، العذاب الفلسفي لبني الإنسان، فعلىٰ قدر ما يخفي عذابه من هذا الجانب يزداد من الجانب الآخر، وقد ثبت ذلك لكل تاريخ البشر. فعلى قدر ما تحرر المرء من الحرمان، الإضطراب، القلق أو العوز المادي، دخل مرحلة القلق المعنوي والفلسفي والإنساني. وعلى قدر تحرره من الأسئلة: ماذا آكل؟ ماذا أشرب؟ من أين أوفر المال؟ يدخل في قضيه من أنا؟ لماذا أعيش؟ لماذا أتيت؟ ما خطب هذا العالم؟ من هو الله؟ ما هو المصير؟ ما هي فائدة العيش؟ ماذا يقصد بالمغزى؟ كيف يجب أن أعيش؟ ما هو عذاب سارتر وما هي غربة كامو؟ من يعاني من عذاب أوديب؟ من يعاني من عذاب (أنتيغونه)[1]؟ من يعاني من عذاب سارتر؟ من يعاني من عذاب (أوجين

(١) أنتيغونه Antigone: إبنة أوديب. عميَّ أبوها فكانت دليله. خالفت أمر ملك طيبة فدفنت أخاها ڤولينيس، وحكم عليها بالإعدام. وأنتيغونه مأساة يونانية لسوفوكليس «الناشر».

يونسكو)[١]؟ كيف حصل مسخ كافكا[٢]؟ لماذا مسخ؟ عذاب وإضطراب إنسان اليوم، عذاب الإنسان البرجوازي اليوم، إضطراب الإنسان الرأسمالي اليوم؟ معاناة المجتمع الرأسمالي اليوم؟ مقاساة الميتافيزيقية؟ عذاب الفراغ؟ يقول كل من سارتر وكامو: ماذا دهانا لنسقط في هاوية الخوف؟ هل كان يخشى أن يقطعوا عليه مرتبه الشهري؟ هل أن سقوطه في هاوية الخوف لجوعه أم لشحة في وضعه المعيشي؟ هل أن الإضطراب والتشتت الفكري الذي يعاني منه الفرنسيون وشبابهم يعود إلى عوز مادي، أم تمرّد علىٰ المعيشة المادية؟ لديه كل الإمكانيات الضرورية للعيش، ويفر منها ليختار لنفسه طرز حياة الهيبيز؟ التمرّد على إستهلاك البرجوازية وظروف حياتهم وحياة الرأسماليين؟ ما هو العذاب الذي دفعه للتمرّد؟ هل هو عذاب ميتافيزيقي؟ إنه معنىٰ الحياة، ومعنىٰ الإنسان ومعنى الوجود.

أما (كامو) فيصل إلى الفراغ ويتعذب منه، كما يصل سارتر إلى الفراغ ويتعذب منه، ولكن يريد سارتر عبثاً الإستعانة بمعنىً

---

(١) يونسكو (أوجين) Ionesco (١٩١٢ ـ ١٩٩٤م): أديب فرنسي روماني الأصل؛ له مسرحيات نقد اجتماعي يندد فيها بعبثية الوجود وسخافة العلاقات الإجتماعية، أهمها «المغنية الصلعاء» «الأمثولة»، «الكراسي». «الناشر».

(٢) كافكا (فرانتز) KAFKA (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤م): أديب تشيكي كتب بالألمانية، عالج في رواياته الأدبية سخف الحياة وتفاهتها. أهم رواياته: «المحاكمة» و«القلعة». «الناشر».

ينشأ به لنفسهِ، فيقول بأن الإنسان والتاريخ هباء لا معنىٰ لهما، كل شيء لا يتسم بمعنىً، ولكن يجب أن نعطي المعاني للأشياء. من أين تأتي بالمعاني يا سارتر لتلصقها بالأشياء؟.

يقول (جان دي ليه)[1] بهذا الصدد أن الإيمان بالعدالة والمعنىٰ لدىٰ فيلسوف متشائم يؤمن بأن العالم لم يخلق علىٰ أساس الشعور والعدالة والمعنى، يشبه حالة ملىء قدح من ماء يسر أمتزج بماء عسر أخذ من محيط من الحنظل.

إنه صحيح، فلو كان المرء يفتقد المعنى وهو خاوٍ لفقد المسؤولية أيضاً. فلو كان العالم فاقداً للمعنى لكان الإنسان أيضاً فاقداً للمعنى. وعلى حد تعبير دوستويفسكي[2] لو جرّدنا معنى العالي، أي الله، من الوجود لأصبح كل شيء مجازاً، وهذا ما يصدّقه سارتر أيضاً.

---

(١) لم نعثر على ترجمته بالتحديد، ولعل المقصود: جون ديوي (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢): فيلسوف مثالي ومربي أمريكي، من أعلام البراغماتية. جاء بمذهب الأداتية، الذي يرى أن المفاهيم والنظريات مجرد أدوات للتكيّف مع الوسط الخارجي، وكان من دعاة الليبرالية والديمقراطية. «الناشر».

(٢) دوستويفسكي (فيدور) ـ Dostoievsky (١٨٢١ ـ ١٨٨١م): أديب ومفكر واقعي روسي. كان له التأثير العظيم في الحركة الفكرية الروسية العصرية. رواياته تمتاز بالتحليل الأخلاقي النفسي، أهمها «الجريمة والعقاب» و«بيت الموتى» و«الأبله». «الناشر».

وعليه فعلى قدر ما أؤمن بأن أصالة التاريخ عامل كبير في بناء الإنسان والمجتمع والطبيعة، أؤمن (أرجو أن تنتبهوا أكثر إلى استنتاجي الأخير هذا)، أؤمن بأن عذاب الإنسان منذ البداية ولحد الآن كان علىٰ نوعين، عذاب مادي لتوفير العدالة وحسن السلوك، وعذاب فلسفي وميتافيزيقي، من أجل تقصي الحقائق ومغزىٰ هذا العالم، ومغزى الحياة وحصيلة الإنسانية: هل أن الدنيا فراغ وهباء أم لا؟ ألم تكن عبثاً؟ هل أن تواجدنا لأجل شيء ما أم لا؟.

وفيما يتعلق بالأسئلة الإقتصادية يمكن محوها من قرارة الإنسان، أنها لأسئلة عن العذاب الإقتصادي والفلسفي والمعنوي، والعارض الإقتصادي يمكن معالجته بتطبيق العدالة الإجتماعية والمساواة ومحو التفاوت الطبقي.

أما العذاب الفلسفي فيمكن الحد من شدته بالإيمان بضرورة محو الأساس المعنوي في الوجود لكي لا نصل غاية بؤس الفلسفة، وأن نسخّر لوجود الروح، الشعور، الإرادة والحس والحساب، لكي نشعر بالمسؤولية تجاه أنفسنا ولا نؤدي بالسؤال أن يصل إلىٰ الفراغ.

فالإنسان الملتزم لا يحس بالفراغ، ولا يمكنه أن يصبح أسير السجون الأربعة، الطبيعة، التاريخ، المجتمع، التي تقف

حيال حرية وإرادة الإنسان، يعني المجال المتاح للإنسان في تقرير مصيره في تلك السجون الثلاثة، فمهما تسلّح بسلاح العلم اقترب من تكامله واشتدّ عوده أكثر، فننجو ونسلط ارادتنا على الطبيعة والتاريخ والمجتمع، تلك الإرادة التي كانت يوماً ما عبداً للطبيعة والتاريخ والمجتمع.

العقيدة، هي وسيلة التحرر من سجن الذات

وللتخلّص من السجن الرابع، سجن الذات، يجب التسلّح بالعقيدة، لا بالعلم، فعلى حد قول (بيكون) استخدام القدرة لتسخير الطبيعة، بل الإستعانة بدين ما فوق العلم، الذي يعبّر عنه (توينبي) ـ فوق الأنا ـ الذي يعد محرك تكامل الإنسان. وانقل إليكم في الختام جملة عن (توينبي) أرجو أن تنتبهوا إليها وهو يقول نفس هذا الكلام بصورة أخرىٰ، فهو من أكبر المؤرخين المعاصرين على الرغم من عدم وجود جدوى من الإيمان بما يذهب إليه، حيث يعتقد الكثير بأن التاريخ لم ينجب مؤرخاً مثل (توينبي)، وقد كتب ثلاثة عشر جزءاً من كتاب أسماه (بحث التاريخ)، اكتشف خلالها (٢٧) نوعاً من الحضارة والمدنية. ويعتقد البعض بأن لم يأتِ بعد (ابن خلدون) مؤرخ كـ(توينبي) علىٰ الرغم من اختلاف مذاهبهم وآرائهم.

فبالشكل الذي وضحت لكم، فإنه يذهب إلى تقدير حاجة الإنسان وإدراكه إلى الحاجة الفلسفية والحاجة المادية. والسجون الأربعة للإنسان (التي أشرت إليها)، تفتح ثلاثة منها بواسطة العلم ويفتح الرابع بالدين. أي العامل الذي ينجينا من السجن الرابع، أي الإضطراب، ليسد حاجاتنا الثانية.

النار الإلهية

فالإنسان يصل إلى مكان، ضمن مسيرته التكاملية، يحصل فيه (على حد تعبير توينبي) على النار الإلٰهية، طبعاً لا ينطبق هذا على كل إنسان، يقصد الإنسان الذي يواصل سيره التكاملي، ذلك الإنسان الواقعي الذي استجاب لإضطرابيه، الفلسفي والإقتصادي، ووصل إلى الطمأنينة المعنوية والطمأنينية المادية، فتحرر من السجون الأربعة: الذات، التاريخ، المجتمع والطبيعة. فنحن منهمكون في بحث الإنسانية وهذا معنىٰ التاريخ، والمجتمع والطبيعة. فالنار الإلهية قوة فطرية للإبداع والخلق، أي أن نَخلق ولا نُخلقُ. فعلى القدر الذي لا نُخلق، يتسنى لنا أن نَخلق. وبهذا اهتدى الإنسان إلى سيره التكاملي. فالجمرة الإلٰهية هي القدرة الفطرية الخلافية لإرادتنا في ذاتنا، ولو أننا أضرمنا تلك النار ـ كما قلت ـ فليس ثمة جبر آخر. وليس هناك أي جبر للإنسان، فالإنسان الذي

وصف بأنه جبر المجتمع، جبر التاريخ، جبر الطبيعة لم يعد مجبولاً علىٰ الجبر. وكمثال على هذه الحالة هناك ثمار لنوع من المحاصيل نزرعها في طهران فتحصل عليها غير ذي طعم، ولكنها تعطي ثماراً لذيذة لو زرعناها في منطقة مشهد. ولكن الثمار فقط هي كذلك.

فالجمرة الإلهية قوة فطرية خلاقة كامنة في ذاتنا، ولو أضرمنا تلك النار لعجزت نجوم السماء من الوقوف أمام هدف التكامل البشري.

فللتاريخ جبره، إلا أنك، أيها الإنسان، تمتلك جبر صنع المسؤولية حسب تقديرك، على أن ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1]، وإن مصيره النهائي هو يوم يرىٰ ما صنع بكلتا يديه، بكلتا عينيه.

والسلام عليكم.

(١) سورة الطور، آية ٢١.

الفهرس